إنَّه القـرآن
سرُّ نهضتنا

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هجري - ٢٠٠٦ ميلادي

الطبعة الثانية

١٤٤٤ هجري - ٢٠٢٣ ميلادي

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٧٩٢٥

الترقيم الدولي: I.S.B.N

٩٧٧-٦١١٩-٨٥-٩

إنَّه القرآن

سرُّ نهضتنا

طبعة مزيدة ومنقحة

مجدي الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ورفعه به أعلى الدرجات، وشرفنا بأن جعلنا أمة القرآن: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١].

لقد رفع الله عَزَّوَجَلَّ الرسول ﷺ لدرجة لم يصل إليها مخلوق آخر، وكان ذلك بالقرآن: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ [سبأ: ٥٠].

فالقرآن المجيد أعظم معجزة نزلت من السماء، وجعل سبحانه دائرة تأثيرها الإنسان: قلبه، ومن ورائه عقله ونفسه، وحين يتفضل الله جل شأنه على عبد من عباده بأن تمس معجزة القرآن قلبه، ويؤيده بروح منه فإن ذلك من شأنه أن يحيله إلى شخص آخر، كما فعل بالصحابة رضوان الله عليهم، يقول الإمام القرافي: «**لَوْ لَمْ يَكُنْ لِرَسُولِ الله ﷺ مُعْجِزَةٌ إِلَّا أَصْحَابه لكفُوهُ في إثباتِ نبوتِهِ**»[1].

واستكمالًا للحديث عن ضرورة العودة إلى القرآن كان هذا الكتاب الذي بين يديك -أخي القارىء- ومما تجدر الإشارة إليه أن الله جل شأنه قد أكرم بفضله كاتبه بكتابته منذ ما يقرب من ستة عشر عامًا، وهذه طبعته الثانية قد تضمَّنت تهذيبًا وإضافة لبعض الفصول وغير ذلك من التعديلات.

(١) الفروق للقرافي (٤/ ١٧٠) ط: عالم الكتب.

ومما ازداد به اليقين بعد كل هذه السنوات أنه لا حل ولا طريق ولا مخرج لهذه الأمة إلا من خلال التمسك الصحيح بالقرآن كمصدر متفرد لتحصيل العلم والإيمان والهداية والشفاء والتغيير الكامل الشامل، وحين نتعامى عن هذه الحقيقة فإن التخبط والتشرذم وتسلط الأعداء علينا سيستمر ويزداد.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يبصرنا طريق العودة الصحيحة إلى القرآن، ويبدد لدينا صور الأوهام التي ننخدع بها في علاقتنا بهذا الكتاب، وأن يأخذ بأيدينا إلى القرآن فنستمسك به استمساكًا كاملًا تامًا، يقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ، طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا**»(١).

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿**سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ**﴾ [البقرة: ٣٢].

• • •

(١) المعجم الكبير (٢٢/ ١٨٨برقم: ٤٩١)، وابن حبان (١/ ٣٢٩ برقم: ١٢٢).

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلا يخفى على أحد الواقع المرير الذي تعيشه أمتنا الإسلامية في هذا العصر، فلقد أصبحت بلا قيمة ولا اعتبار، تكالب عليها الجميع، وصارت عبرة بين الأمم في الذل والهوان والتخلف والظلام.

هـذا الواقع الأليم دفع المخلصين من أبنائها إلى البحث عن سـبل لنهضتها وخروجهـا من النفق المظلم الذي تسـير فيه، وتعالت الأصـوات من هنا وهناك تنادي بضرورة وجود مشروع للنهضة تلتف الأمة كلها حوله وتتبناه.

تعددت الأطروحات والمقترحات حول نقطة البداية لمشـروع النهضة، فمن قائل: نأخذ بأسـباب التقدم العلمي كما أخذ بها الغرب فنصير مثلهم، ومن قائل: بل وجودنـا كقوة اقتصادية تفرض نفسـها على الجميع هو الحـل الأمثل لعودة مجدنا مرة أخرى..

هذه وغيرها أمثلة للرؤى التي تُطرح اليوم، بيد أن أصحاب تلك الأطروحات -على أهميتها- قد غفلوا عن حقيقة مهمة، وهي أن الأمة الإسـلامية ليست كبقية الأمم عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لذا فإن سبيل نهضتها لا بد أن يختلف عن سبيل نهضة الأمم الأخرى، فما يصلح لغيرنا ليس بالضرورة يصلح لنا أو يصل بنا إلى ما وصلوا إليه.

ومما يؤكد هذا المعنى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد ربط بين تقدمنا وعلونا كأمة إسلامية وبين إيماننا ومدى ارتباطنا به: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وليس معنى هذا أن نترك الاجتهاد في تحصيل الأسباب المادية، بل المقصد هو إعادة ترتيب الأولويات وعدم مقارنتنا بالأمم الأخرى في كل شيء.

فمشروع النهضة الذي ينبغي أن نتبناه جميعًا لا بد أن يكون هدفه الأول إعادة الأمة إلى مكانتها عند الله؛ ليعيد لها سبحانه دورها القيادي بين الأمم، وكيف لا، ومفاتيح التمكين بيده وحده سبحانه: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وبيده وحده مقاليد النصر والسيادة: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥].

مع الأخذ في الاعتبار أن الاجتهاد في تحصيل الأسباب المادية له دور كبير في نهضة أي أمة، ومع أهميته الكبرى إلا أنه لا يأتي في المقدمة بالنسبة لنا.

ولأن كيان الأمة يتشكل من مجموع الأفراد، فإن نقطة البداية وحجر الزاوية في النهضة لا بد أن ينطلق من صلاح الفرد لتنصلح بذلك الأمة، فيرضى الله عنها ويعيد لها مجدها السليب.

فإن قلت: وما الوسيلة التي يمكنها أن تقوم بذلك فتسع جميع أفراد الأمة من شرقها إلى غربها، وبكل مستوياتها، ولا تكون في الوقت نفسه موضع اختلاف بل موضع إجماع من الجميع، سلفهم وخلفهم؟!

مــن أجل الإجابــة عن هذا الســؤال كانت تلكم الصفحات، التي نســأل الله أن يلهمنا فيها الرشــد والســداد، ويجنبنا الزلل، وأن تصحبنــا فيها رعايته وفضله وتوفيقه، وأن يتقبلها منا ومن كل من ســاهم فيها، إنــه نعم المولى ونعم النصير:

﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢].

• • •

الفصل الأول

الأسباب والنتائج

- الأسباب المادية والمعنوية.
- النتائج من الله لا من الأسباب.
- ستار الأسباب.
- هل الأسباب متاحة للجميع؟

الأسباب والنتائج

الأسباب المادية والمعنوية

خلق الله عَزَّوَجَلَّ الأرض، وجعل القانون الذي يحكمها وينظم الحياة عليها هو قانون السببية، فلكي نحصل على نتيجة ما، لا بد من اتخاذ أسباب بعينها تؤدي إليها، والأسباب التي من شأنها أن تؤدي إلى حدوث النتائج تنقسم إلى قسمين: قسم مادي، وقسم معنوي.

القسم المادي: هو القسم الذي يتعامل مع المادة المتعلقة بحدوث النتيجة المطلوبة، فالعطشان الذي يريد أن يرتوي عليه أن يشرب الماء، والجائع عليه أن يأكل ليشبع، والذي يريد الوصول إلى مكان ما عليه أن يسير إليه أو يتخذ وسيلة مواصلات مناسبة تقوم بتوصيله للمكان الذي يريد... وهكذا.

وكما نرى فالقوانين المادية نتائجها في الغالب معروفة ومحددة.

أما القسم المعنوي للقوانين: فهو يتعلق بتنفيذ أمور غير مادية تؤدي إلى تحقيق نتائج مادية ملموسة، أو تنفيذ أمور مادية ليس لها علاقة ظاهرية بالنتائج التي تُحدثها.

وإليك -أخي القارئ- أمثلة لهذا القسم

الاستغفار شيء معنوي، لكن الله عَزَّوَجَلَّ أخبرنا في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ بأن للاستغفار نتائج مادية كقوله تعالى:

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وفي الحديث: «**مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**»(١).

- الدعاء أمر معنوي ومع ذلك فمن شأنه -بإذن الله- أن يؤدي إلى نتائج مادية محسوسة مثل ما حدث للثلاثة نفر الذين دخلوا إلى مغارة، وجاءت صخرة عظيمة فسدَّت عليهم باب الخروج، وحاولوا زحزحتها فلم يستطيعوا، فما كان منهم إلا أن دعوا الله بإخلاص أن يفرِّج عنهم كربهم، فاستجاب الله لهم وأزيحت الصخرة، وخرجوا جميعًا(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة باب في الاستغفار (٢/ ٨٥ برقم: ١٥١٨)، وابن ماجه في الأدب باب الاستغفار (٢/ ١٢٥٤برقم: ٣٨١٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٥١ برقم: ٢١٤).

(٢) عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر، فأووا إلى غار في جبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالًا عملتموها صالحة لله، فادعوا الله تعالى بها، لعل الله يفرجها عنكم، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبية صغار أرعى عليهم، فإذا أرحت عليهم، حلبت، فبدأت بوالدي، فسقيتهما قبل بني، وأنه نأى بي ذات يوم الشجر، فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة، نرى منها السماء، ففرج الله منها فرجة، فرأوا منها السماء، وقال الآخر: =**

- المرض له أســباب، وعندما يتناول المريض الدواء المعالج لسبب المرض فغالبًا ما يُشــفى -بإذن الله- ولكن هناك أمورًا أخرى ليس لها علاقة بأسباب المرض من شأنها أن تؤدي إلى الشفاء؛ كماء زمزم، والصدقة...

قال رسول الله ﷺ: «**حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ، وَدَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ**»(١).

ومــن أمثلة الأســباب المعنوية كذلك صلاة الاستســقاء، فالجــو قد يكون صحوًا، والســماء صافية ويحتاج المسلمون إلى الماء فيخرجون للصلاة متذللين متخشعين منكسرين لله عَزَّوَجَلَّ، فترى السماء الصافية وقد تلبدت بالغيوم وتجمعت فيها السحب، ونزل المطر، كما حدث في عهد الرسول ﷺ، وكما تكرر كثيرًا عبر تاريخنا الإسلامي.

= **اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها، فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها، فلما وقعت بين رجليها، قالت: يا عبد الله اتقِ الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة، ففرج لهم، وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرًا بفرق أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرًا ورعاءها، فجاءني فقال: اتقِ الله ولا تظلمني حقي، قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها، فخذها فقال: اتقِ الله ولا تستهزئ بي. فقلت: إني لا أستهزئ بك، خذ ذلك البقر ورعاءها، فأخذه فذهب به، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا ما بقي، ففرج الله ما بقي**». رواه البخاري كتاب البيوع باب إذا اشترى شيئًا لغيره بغير إذنه فرضي (٣/ ٧٩ برقم: ٢٢١٥)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (٤/ ٢٠٩٩ برقم: ٢٧٤٣) واللفظ له.

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٢٨ برقم: ١٠١٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٠٤) و (٤/ ٢٣٧) والطبراني في الدعاء (ص: ٣١ برقم: ٣٤) عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وأبو داود في المراسيل (ص: ١٢٧ برقم: ١٠٥) عن الحسن البصري مرفوعًا.

النتائج من الله لا من الأسباب

قد يقول قائل: إذن نركز على الأسباب المعنوية باعتبار أن نتائجها كبيرة ولا تكلفنا شيئًا، ونترك الأسباب المادية؛ نترك التداوي، نترك الطعام، نترك...إلخ، ونتجه إلى الدعاء والصدقة والاستغفار.

لو فعلنا ذلك ما تحققت -في الغالب- نتائج، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي خلق الأسباب المادية والمعنوية، وهو الذي طالبنا باتخاذ كليهما، على أن يكون التعامل معها باعتبار أنها لا تملك قوة، ولا فاعلية ذاتية تمكّنها من تحقيق النتيجة، فالأمر كله مع الله، والأسباب هي الستار الذي يتنزل من خلاله قَدَرُه سبحانه.

فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يروي ويشعرنا بالإرواء، لكنه جعل هذا الأمر يتحقق من خلال سبب مادي وهو شرب الماء، وهو سبحانه الذي يشفي، وجعل ذلك من خلال بث الفاعلية في الدواء أو في الصدقة، وهكذا.

ولعل عدم ملازمة النتائج للأسباب في بعض الأحيان دليل يؤكد للناس هذه العقيدة، فالنوم سبب للراحة وفي بعض الأحيان ينام الإنسان طويلًا ويستيقظ وهو يشعر بالتعب، بل لقد نصَّ الحديث النبوي على أن من ينام عن صلاة الفجر، ولو كان نومه طويلًا، إلا أنه يُصبح: «**خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ**»[1]، وكذلك الدواء قد لا يكون سببًا للشفاء، ويظل المريض ينتقل من دواء لدواء دون نتيجة.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده (٤/ ١٢٢ برقم: ٣٢٦٩)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح (١/ ٥٣٨ برقم: ٧٧٦).

خطورة التعلق بالأسباب

عندما يتعامل المرء مع الأسباب على أنها هي التي تستجلب له النتائج فإنه بذلك يقع في منزلق خطير يؤدي به إلى الوقوع في دائرة الشرك بالله -الشرك الأصغر-، وتتحول الأسباب إلى جدار يحجبه عن الله، مع أنها ما خُلقت إلا لتكون ستارًا يرى العبد من ورائه قدرة الله، وحكمته، ولطفه، ورحمته، وقهره، و...

ومن مخاطر التعلق بالأسباب كذلك أن الفزع سيتملك القلب كلما نقصت الأسباب، والفرح سيملؤه عندما تزداد، ويتحول الاعتماد عليها في تحقيق النتائج لا على الله، وقد نص القرآن على حال المشركين الذين إذا ذُكر من هم دون الله من شركائهم يفرحون ويستبشرون: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

سِتار الأسباب

إذن فالأسباب ستار من الضروري إقامته ليتنزل عليه القدر... هذا الستار يبدأ بالأسباب المادية المتاحة أولًا، ثم بالمعنوية ثانيًا، كما قال رسول الله ﷺ للرجل الذي ترك دابته دون عقال: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»(١).

فإن اقتصر الستار على الأسباب المادية كان حجمه محدودًا ونتائجه محدودة.

وإن حاول الإنسان إقامته من الأسباب المعنوية فقط دون استخدام الأسباب المادية المتاحة أمامه فهذا سوء أدب مع الله، ولن يتحقق له -في الغالب- ما يريد؛ لأنه خالف بذلك القوانين التي وضعها الله عَزَّوَجَلَّ لإقامة الحياة والوصول إلى النتائج.

(١) أخرجه ابن حبان كتاب الرقاق، باب الورع والتوكل (٢/ ٥١٠ برقم: ٧٣١)، والحاكم (٣/ ٦٢٣).

وإن جمع بين الاثنين فهو بذلك يزيد من حجم الستار فيتنزل القدر بنتائج لا حدود لها. تأمل قول رسول الله ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا**»(١).

مع ملاحظة أن تغدو وتروح هي الأسباب المطلوب من الطير أن تفعلها وتأخذ بها.

ومن الأمثلة التي تؤكد هذا المعنى: شكوى الصحابة -رضوان الله عليهم- من قلة الماء واحتياجهم للشرب والوضوء، فماذا فعل رسول الله ﷺ؟ أقام الستار بالأسباب المادية أولًا: طلب الماء القليل الموجود، ثم وضع يده الشريفة فيه ودعا الله بعد ذلك، فنبع الماء من بين أصابعه، وشرب الجميع وتوضأوا!(٢).

وكذلك ما حدث لمريم الصدِّيقة حين جاءها المخاض وهي تستند بظهرها على جذع نخلة لا ثمر فيها، فطلب الله منها أن تهز الجذع بيدها كستار مادي، مع توكلها المطلق على الله عَزَّوَجَلَّ وتعلقها به ليتنزل القدر ويسقط الرطب: ﴿ **وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥** ﴾ [مريم: ٢٥].

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب في التوكل على الله (٤/ ٥٧٣ برقم: ٢٣٤٤)، وقال: حسن صحيح، وابن حبان كتاب الرقاق، باب الورع والتوكل (٢/ ٥٠٩ برقم: ٧٣٠)، والحاكم (٤/ ٣٥٣ برقم: ٧٨٩٤)، ومعنى خماصًا: أي ضامرة البطون من الجوع، وبطانًا: أي ممتلئة البطون.

(٢) روى البخاري كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٤/ ١٩٤ برقم: ٣٥٧٩) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفًا، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقل الماء، فقال: «**اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ**» فجاءوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «**حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ الْمُبَارَكَ، وَالْبَرَكَةِ مِنَ اللهِ**» فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ. والترمذي في المناقب، باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ (برقم: ٣٦٣٣)، والنسائي في الطهارة، باب الوضوء من الإناء (١/ ٦٠ برقم: ٧٧).

وعندما أمر الله عَزَّوَجَلَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ينادي على الناس، داعيًا إياهم إلى الحج: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ [الحج: ٢٧]. قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال تعالى: نادِ وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل على الحجر، وقيل على الصفا، وقيل على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب![1].

فإن قلت: ولماذا يُبدأ بالأسباب المادية لتكوين الستار؟

لأن الأسباب المادية جعلها الله متاحة للجميع؛ المؤمن والكافر، وبالتالي يمكن لأي إنسان أن يحصل على النتائج من خلالها، ولو كانت البداية بالأسباب المعنوية لحُرم الكافر من النتائج التي تكفل له العيش وتوفِّر له الاحتياجات الأساسية؛ ومن ثمَّ لآمن كرهًا حتى يستطيع البقاء على قيد الحياة.

.. هذا الإكراه يتنافى مع طبيعة اختبار العبودية في الدنيا، وحرية الاختيار، والإرادة الحرة التي أتاحها الله جل شأنه للإنسان: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

هل الأسباب متاحة للجميع؟

الله عَزَّوَجَلَّ خلق الأرض وقدَّر فيها الأقوات والأرزاق والأسباب التي تيسر للناس معاشهم فيها، وجعل التعامل مع أسبابها متاحًا للجميع؛ سواء للسائلين، فعلى قدر اجتهاد الإنسان وسعيه في الوصول إلى مكنوناتها واستخدام أسبابها، يصل إلى مبتغاه ويحصل على نتيجة جهده وسعيه.. يستوي في ذلك المؤمن والكافر:

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٦٠٦) عن سعيد بن جبير ومجاهد وغيرهما، وذكره ابن كثير في التفسير (٣/ ٢٠٤).

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت: ١٠]، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٠].

هذا بالنسبة للأسباب المادية، أما الأسباب المعنوية التي تجلب الزيادة المضاعفة في النتائج فاستخدامها مشروط بالإيمان بالله، وعدم الشرك به، وإخلاص التوجه إليه... وعلى قدر ذلك يكون الستار؛ ومن ثمَّ المدد الإلهي.

فالمشركون إذا ما عادوا إلى الله في أي وقت وطلبوا منه بصدق وإخلاص أن ينجيهم من كرب أصابهم فإنه سبحانه سينجيهم: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [لقمان: ٣٢].

معنى ذلك أن ظهور النتائج من خلال اتخاذ الأسباب المعنوية مرتبط بحال صاحبها وقت استخدامه لها، فعلى قدر إيمانه بالله، وتعلقه به، وإخلاص التوجه والاستعانة به -سبحانه- يكون المدد، فالأسباب المعنوية بمثابة القوس في يد الضارب، وعلى قدر قوته في استخدامه تكون سرعة السهم ومكان وصوله. تأمل معي مدى استغاثة المسلمين بربهم في بدر، ثم انظر إلى حجم المدد الإلهي بعد ذلك: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٩].

فالإمداد ليس مرتبطًا بأشخاص بعينهم مهما كانت سابقتهم أو نسبهم، بل هو مرتبط بالحالة الإيمانية التي هم عليها: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ [الجن: ١٦]، فعهد الله ووعده بإمداد عباده بما يكفيهم وينصرهم ويحفظهم

لا يتحقــق إلا إذا أوفوا هم بعهدهم معه: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٠]، فإن لم يفعلوا فالنتيجة معروفة: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وخلاصة القول: إن الأسباب ضرورية لحصول النتائج كستار يتنزل عليه قدر الله، وأنها بذاتها لا تُحدث القدَر، بل تهيئ لنزوله.

والأســباب نوعان: مادية ومعنوية؛ المادية متاحة للجميع، والمعنوية قاصرة على المؤمنين بالله، وعلى قدر الإيمان والإخلاص تكون النتائج المتحققة.

• • •

الفصل الثاني

لسنا كبقية الأمم

- الوضع الخاص بأمة الإسلام.
- هل نترك الأسباب المادية؟!
- المسلم الصحيح أولًا.
- هل هي دعوة للتخلف؟

لسنا كبقية الأمم

نهض الغرب في القرون الأخيرة نهضة واســعة، وتســابق أبناؤه في كشــف مكنونــات الأرض وحســن الانتفــاع بها، فاســتجابت الأرض لهــم -بأمر الله- وأعطتهم بعض أسرارها، فتفوقوا على غيرهم وامتلكوا مفاتيح التقدم والثروة.

وفي المقابل نجد أن أمة الإســلام قد خيَّم عليها الجهل والظلام والتخلف، وانتقلت تدريجيًّا من مصاف الأمم المتقدمة إلى آخر الركب.

أصبحت أمتنا أضعف الأمم، وباتت مطمعًا للجميع، حتى اليهود الذين كتب الله عليهم الذلة والمسكنة قد استأسدوا علينا وسامونا سوء العذاب.

هــذا الوضع المرير حدا بكثير من أبناء الأمة بالمنــاداة بضرورة التركيز على الأســباب المادية، والســعي في نفس الاتجاه الذي سلكه الغرب كي نصل إلى ما وصلوا إليه، فهل هذا التصور فقط يصلح لكي يكون سبيلًا لنهضة الأمة الإسلامية؟

الوضع الخاص بأمة الإسلام

إن كان الغرب بســعيه في الأرض واستفادته من خيراتها المتاحة للجميع قد نجح في امتلاك زمام التقدم والحضارة، فإن هذا لا يعني أن نســير مثلهم في نفس الطريق، ونعطي ذلك الأولوية المطلقة، وذلك لجملة من الأسباب:

أولًا: إن الله تعالــى قد اختص الأمة الإســلامية بنعمة عظيمة، لم يختص بها أمة معها على وجه الأرض، ألا وهي رســالة الإسلام التي تُعد بمثابة رسالة هداية

للبشرية جمعاء: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

هـذه المزية العظيمة التي تجعل من أمتنـا خير أمة أخرجت للناس، وتضعها على رأس الأمم الأخرى؛ مرتبطة بمدى تمثل الرسـالة في الأمة، وبمدى تبليغها إياها لسـائر الناس، فإن لم تفعـل عاقبها الله عَزَّوَجَلَّ بعقوبـات متصاعدة كي تفيق من سباتها وتقوم بواجبها، وسيستمر العقاب باستمرار الإعراض عن القيام بذلك الواجب.. هذا هو التشخيص الحقيقي لواقعنا المرير.

فنحـن الآن فـي مظـان الغضـب والعقوبـة الإلهيـة بسـبب خيانتنـا للأمانـة.. ومهمـا اجتهدنـا فـي تحصيـل الأسـباب الماديـة فلـن يُرفـع عنـا العقـاب أو الذل والهـوان إلا إذا عدنـا إلـى ديننا أولًا. ألم يقل رسـول الله ﷺ: «**إِذَا تَبَايَعْتُـمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُـمْ أَذْنَـابَ الْبَقَـرِ، وَرَضِيتُمْ بِالـزَّرْعِ، وَتَرَكْتُـمُ الْجِهَادَ، سَـلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُـهُ حَتَّـى تَرْجِعُـوا إِلَى دِينِكُـمْ**»؟!(١).

ولقـد كان ثمة أمة في الماضي خانت الأمانـة وكفرت بأنعم الله، فحدث لها مثل ما يحدث لنا الآن من عقوبات حتى يرجعوا، فلما أصروا على غيهم سلب الله منهم الأمانة وحمَّلها لنا. تلكم هي أمة بني إسـرائيل: ﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ٢١١].

ثانيًا: إن مصدر رفعة وعزة الأمة الإسـلامية مرتبط بمدى علاقتها بربها، ومدى دخولها في دائرة معيته وكفايته: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

(١) رواه أحمد في المسند (٨/ ٤٤٠ برقم: ٤٨٢٥)، وأبو داود في السنن (٣/ ٢٧٤ برقم: ٣٤٦٢) واللفظ له.

ويتمثل ذلك جليًّا في قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله»[١].

وفي المقابل فإن مصدر رفعة الأمم الأخرى في الدنيا يكون على قدر امتلاكها للأسباب المادية «فقط»؛ لأنها لم تُكلَّف بما كلِّفنا به، ومن الخطأ بمكان أن نسعى للرفعة من خلال تقليدهم والسير وراءهم:

﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء: ١٣٩].

ثالثًا: إن باب الأسباب المعنوية نملكه دون غيرنا من الأمم الكافرة بالله:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [محمد: ١١].

فكيف نترك سر تفوقنا وتميزنا؟!

كيف نترك ما اختصنا الله به ونبحث عما في أيدي الآخرين؟

كيف نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ونعطيه الأولوية؟! ألم يقل سبحانه: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣].

رابعًا: لو أُغلق أمامنا باب الأسباب المعنوية، وتساوينا مع الكفار في السباق نحو امتلاك الأسباب المادية، فستكون النتيجة لصالحهم لا محالة، فكما قال الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنما تنصرون على عدوكم بطاعتكم

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ١٣٠ برقم: ٢٠٧) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

لله ومعصيتهم له، فإذا عصيتموه تساويتم [١].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فنحن حين نترك الأسباب المعنوية ونعتمد على الأسباب المادية فقط، فإننا نتعرض للعقوبة من الله بالخذلان وتعسير الأمور، بينما هم لن يعاقبوا مثلنا وإن كانوا أكثر منا معصية، ولمَ لا وقد خُنَّا أمانة عظيمة ائتمننا الله عليها دون غيرنا. وهذا ما أكده عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قبل تحرك جيش المسلمين لملاقاة الفرس في القادسية بقوله: «ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يُسلط علينا، فرب قوم سلط الله عليهم من هو شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمعاصي الله كفار المجوس فجاسوا خلال الديار»[٢].

خامسًا: نحن مطالبون بالأخذ بالأسباب المادية بالقدر المتاح أمامنا لإقامة الستار الذي يتنزل من خلاله قدر الله: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ولسنا مطالبين أمام الله عَزَّوَجَلَّ بأكثر مما نقدر على تحصيله من تلك الأسباب.

وفي الوقت نفسه فقد طالبنا الله عَزَّوَجَلَّ بالأخذ بالأسباب المعنوية كلها، من توبة وتذلل وانكسار إليه، واستعانة به، وتوكل مطلق عليه،... وليس لنا عذر في تركها، وكيفَ لا وهي متاحة أمامنا جميعًا، ولا يوجد ما يحول بيننا وبين الأخذ بها، وهذا هو ترتيب دعاء الربيِّين: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

---

(١) كتاب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص، في مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله، دار النفائس (ص: ٧٥٤)، العقد الفريد لابن عبد ربه (١/ ١١٧).

(٢) الجهاد في الإسلام لمحمد سعيد رمضان البوطي (ص: ٢٤٥).

تأمل قوله تعالى وهو يخاطب نبيه ويرشده إلى الاهتمام بالأسباب المعنوية، وأنها هي الســبب الرئيس لاستجلاب النصر: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩ ، ١٦٠].

سادسًــا: لو افترضنا أن الأســباب المادية هي التي تحسم الصراع، وتعيد لنا مجدنا الســليب، فالوضع القائم يؤكد أن أعداءنا لن يسمحوا لنا بامتلاكها بالقدر الذي يجعلنا نتكافأ معهم أو حتى نقترب منهم، فلقد أحكموا قبضتهم علينا من كل جانب، وظهر استعلاؤهم واســتكبارهم وطغيانهم بصورة لم يسبق لها مثيل، ولا أمل لنا إلا في الله بأن يكون معنا فيحســم الصراع لصالحنا: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾ [الرعد: ١١].

فــالله وحده هو القادر على أن يهزمهم رغم تفوقهــم علينا ماديًّا، وهو القادر علــى قلب ميزان القوة تمامًا، ولعل ما حدث في غزوتي بدر والأحزاب أكبر دليل على ذلك.

ولكــن الله عَزَّوَجَلَّ أخبرنا بأنه لن يكون معنا إلا إذا فعلنا ما يرضيه من إخلاص لــه في التوجه والاســتعانة، ومن طاعــة لأوامره، ومن جهاد في ســبيله وتضحية مــن أجله، ومن تقديم حبه على كل المحــابّ الأخرى، ومن بذل الجهد والأخذ بالأســباب المادية المتاحة أمامنا: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥].

سابعًا: تاريخ أمتنا يؤكد هذه الحقيقة. فأمة العرب التي كانت قبل الإسلام في مؤخرة الأمم لم تنتقل إلى مقدمتها بفضل امتلاكها للأسباب المادية وتفوقها بها على غيرها، بل لأنها دخلت في دائرة المعية والرضا الإلهي، فأوفى الله بعهده معها، وملَّكها الأرض ودحر الممالك الأخرى من فرس وروم، الذين كانوا وقتذاك يمتلكون من الأسباب المادية ما يفوق ما عند الأمة الإسلامية بأضعاف مضاعفة: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾؟! [التوبة: ١١١].

ويزداد هذا الأمر تأكيدًا عندما ننظر إلى المعارك الإسلامية خاصة في العصور الأولى التي كانت الأمة فيها قريبة من الله تتمتع بحمايته ونصرته وكفايته.

ففي هذه المعارك -كبدر واليرموك والقادسية- كانت الأسباب المادية عند الكفار تفوق أضعاف أضعاف ما عند المسلمين، ومع ذلك انتصر المسلمون انتصارات باهرة.

لماذا؟!

لأن الله كان معهم: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

فعندما يكون الله مع الفئة المؤمنة فلا قيمة أبدًا لكثرة الكافرين عددًا أو عدة: ﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[الأنفال: ١٩].

وفي المقابل فإن التاريخ ينبئنا بأنه عندما يُخلّ المسلمون بالشروط التي يريدها الله منهم ليُنزل عليهم نصره، فإن الهزيمة ستكون حليفهم وإن كانوا أكثر عددًا وعدة من أعدائهم، ولنا في غزوة حنين -عند بدايتها- أكبر مثال على ذلك: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ

﴿ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥].

بل إنه في إحدى المعارك -معركة العُقَاب[١]- وكانت بين المسلمين في الأندلس في عهد دولة الموحدين، وبين النصارى، فقد بلغ فيها عدد جيش المسلمين -كما تقول بعض الروايات- خمسمائة ألف مقاتل، ومع ذلك فقد هُزموا هزيمة منكرة وذبح منهم عشرات الآلاف، وذلك بسبب اتكالهم على قوتهم، وكثرة خلافاتهم.

هل نترك الأسباب المادية؟

قد يقول قائل: هل معنى هذا أن نترك الأسباب المادية، ونتجه للأسباب المعنوية التي نعرفها ولا يعرفها غيرنا؟!

لو تركنا الأسباب المادية المتاحة أمامنا لظللنا في أماكننا كما نحن ولن نتقدم قيد أنملة، فكما قيل سابقًا بأن الأسباب المادية المتاحة هي التي تُقيم الستار وتهيئ التربة لنزول القدر الإلهي، أما الأسباب المعنوية فهي التي تستكمل إقامة الستار وتمنحنا مزية التأييد الإلهي دون غيرنا، فالإعداد المادي ضروري -وبالقدر المتاح أمامنا- والإعداد المعنوي لا غنى لنا عنه إن أردنا أن تعود لنا عزتنا ومجدنا السليب، ولم لا وهو الذي يُرجِّح كفتنا على غيرنا، فضلًا عن كونه هو مهمة وجودنا لتحقيق عبوديتنا لله عَزَّوَجَلَّ.

إذن فالمقصد من هذا كله هو إعادة ترتيب الأولويات، وعدم مقارنتنا بالغرب، وأن نوقن بأن قوة علاقتنا بالله هي سر تقدمنا، فإن انقطعت، وتخلى الله عنا، صار أعداؤنا أفضل منا وإن فقناهم عددًا وعدة؛ لأننا حينئذٍ نكون: مغضوبًا علينا... ألم

(١) كانت في سنة ٦٠٩ هـ.

يقل سبحانه لبني إسرائيل من قبل: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾؟! [طه: ٨١].

ولقد هوينا إلى القاع بالفعل، وصرنا تحت الأقدام بسبب غضب الله علينا لأننا خُنَّا أمانته.

العودة إلى الله هي البداية

إن نقطة البداية التي ينبغي ألا نتخطاها هي العودة إلى الله.

الصلح مع الله، والدخول في دائرة الرضا والمعية والولاية والنصرة الإلهية.

نقطة البداية هي الارتقاء بقيمة الفرد عند الله، وهذا لن يأتي إلا من خلال صلاحه واستقامته على منهاج ربه ومولاه.

صلاح الفرد هو الذي سيؤدي إلى صلاح المجتمع فصلاح الأمة؛ ليستبدل الله بغضبه عليها رضاه، ويولِّي عليها خيارها.

عن قتادة قال: قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لربه: «**يَا رَبِّ، أَنْتَ فِي السَّمَاءِ وَنَحْنُ فِي الْأَرْضِ، فَمَا عَلَامَةُ غَضَبِكَ مِنْ رِضَاكَ؟**

قَالَ: إِذَا اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ خِيَارَكُمْ فَهُوَ عَلَامَةُ رِضَايَ عَلَيْكُمْ، وَإِذَا اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَهُوَ عَلَامَةُ سَخَطِي عَلَيْكُمْ»(١).

معنى ذلك أن عزنا وتقدمنا ورفعتنا مرتبطة برضا الله عنا، فإن رضي عنا تضاعفت النتائج المترتبة على الأخذ بالأسباب المادية، وظهرت البركة في القليل المتاح.. فعشرة آلاف على سبيل المثال يهزمون مائة ألف وأكثر، وكيف لا والله يؤيد بنصره من يشاء: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. وتتدرج نسبة التفوق

(١) العقوبات لابن أبي الدنيا (ص: ٣٧).

تصاعديًّا وتنازليًّا بقدر الإيمان: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

المسلم الصحيح أولًا

فصلاح الفرد أولًا ثم امتلاك الأسباب المادية ثانيًا.

المسلم الصحيح قبل الطبيب، قبل المهندس، قبل عالم الذرة...

المسلم العابد لله أولًا، ثم ليكن بعد ذلك في المكان الذي أقامه الله فيه، ليتخذ الأسباب المادية المتاحة أمامه، فيبارك الله فيها ويضاعف نتائجها.

فيقينًا: إن نهضة أمتنا تنطلق من صلاح الفرد على أساس الإسلام، ثم التحرك بهذا الفرد الصالح في الميادين المختلفة والمتاحة ليكون بعد ذلك: مسلم طبيب، مسلم مهندس، مسلم مدرس، مسلم نجار، مسلم فلاح، ...

وكما قيل: إذا وجد المؤمن الصحيح وجدت معه أسباب النجاح جميعًا.

المقصود بصلاح الفرد

وليس المقصود بصلاح الفرد هو التركيز على أدائه العبادات بشكلها الظاهري فقط، بل المقصود هو أن يحقق ما يريده الله منه من عبودية صحيحة له سبحانه، فعلى قدر «العبودية» تكون قيمة الفرد عند الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

صلاح الفرد يبدأ من الداخل، فيكون باطنه أفضل من ظاهره.

صلاح الفرد يعني أن يكون الله أعز عليه وأحب إليه من كل شيء.

صلاح الفرد يعني أن يَعظُم قدر الله لديه، وتصغر نفسه عنده.

صلاح الفرد يعني زهده في الدنيا ورغبته في الآخرة.

صلاح الفرد يعني أن تكون معاملته مع الله هي الأساس الذي يحرص عليه، فيخشاه ويتقيه ويطيعه ويرجوه ويتوكل عليه ويستعين به في كل أموره؛ لينعكس ذلك على تصرفاته ومعاملاته مع غيره وفي جميع الدوائر التي يتعامل فيها.. مع أهله وزوجته وأولاده.. مع جيرانه وزملائه.. مع الناس أجمعين، فيكون نعم الزوج لزوجه، والابن لأبويه، والأب لأبنائه، والجار لجيرانه، والعامل في متجره، والداعي دومًا إلى الله، و.....

يحب في الله ويبغض في الله، يسارع دومًا في الخيرات، ويجتنب كل المنكرات، فإن زلت قدمه يومًا تراه مسرعًا مهرولًا إلى مولاه يسترضيه ويطلب منه العفو والصفح، وبصلاحه هذا يمن الله عليه وعلى من حوله بما ورد في الأثر: «إِنَّ اللهَ لَيُصْلح بِصَلَاحِ الْعَبْدِ وَلَدَهُ، وَوَلَدَ وَلَدِهِ، وَأَهْلَ الدُّوَيْرَات حَوْلَهُ فَمَا يَزَالُونَ فِي حِفْظٍ مِنَ اللهِ مَا دَامَ بَيْنَهُمْ»[1].

هل هي دعوة للتخلف؟!

فإن قلت: ولكن هذا معناه إضعاف الحافز داخل النفس للتقدم والتفوق، فتقل تبعًا لذلك الكفاءات بيننا ويزداد اعتمادنا على الحضارة الغربية والتبعية المهينة لهم.

المتأمل لما قيل سابقًا سيجد أن العكس هو الذي سيحدث بمشيئة الله، وإليك

(١) مصنف ابن أبي شيبة بتحقيق عوامة (١٩/ ٤٤٢ برقم: ٣٦٥٦٤).

-أخي القارئ- مزيد من وضوح الرؤية حول هذه النقطة:

أولًا: الذي يبدأ طريقه بالصلح مع الله والتربية على إيثار محابه ومراضيه على ما تحبه نفســه وتهواه، فإنه لــن يألو جهدًا في ارتياد كل الأماكن التي ترفع شــأن الإسلام؛ لأنه ســيحمل همَّه دائمًا، وفي المقابل فإنّ من يبدأ طريقه بالتركيز على التفوق المادي فقط فإنه بالفعل ســيتفوق -بإذن الله- طبقًا لقانون الســببية، ولكن في كثير من الأحيان يصبح هذا التفوق خادمًا لنفســه، محققًا لمجده الشــخصي ورفعتــه على من حوله؛ من ثم لا يُدخل صاحبه فــي دائرة الرضا الإلهي لإخلاله بشروطها، فتكون النتيجة استمرار الوضع على ما هو حادث الآن.

ثانيًا: البدء بالأسباب المادية يمهد الطريق لظهور مظاهر العزة الزائفة بالألقاب والشــهادات، والمناصب، والأموال وغير ذلك من أمور الدنيا؛ مما يجعل تفاضل المســلمين فيما بينهم ونظرتهم لبعضهم البعض طبقًا لوجود تلك المظاهر، وهذا من شــأنه أن يبعدنا أكثر وأكثر عن دائرة الرضا الإلهي التي هي ســر كل ســعادة ورفعة.

وفي المقابل فإن من يبدأ طريقه بإصلاح نفســه من كل الجوانب فإنه سيعيش دومًا في حقيقة فقره إلى الله، وشــدة احتياجه دومًا إليه، وأنه به ســبحانه لا بنفسه، فينعكس ذلك على تعامله مع الآخرين؛ فيخفض لهم جناحه، بل ويستشــعر دومًا أنهم جميعًا أفضل منه مهما كانت ألقابه ومناصبه.

ثالثًا: الذي يبدأ بإصلاح نفسه فإنه يتحرر من أسر الناس، وأعرافهم الخاطئة، ويتحرر كذلك من أســر الاهتمامات الأرضية الدنيوية، فتسمو اهتماماته، وتجده يبحث عما يرضي الله ليفعله، بغض النظر عن تقييم الناس لفعله.

ومن فوائد البدء بصلاح الفرد وإيجاد المسلم الصحيح أولًا

.. أن أساليب تربية الوالدين لأبنائهما ستختلف، فعندما يصبح الهدف هو تعبيد الأبناء لله عَزَّوَجَلَّ أولًا ثم التفوق ثانيًا، فإن هذا من شأنه أن يجعل محور اهتمام البيت هو الله جل شأنه ونيل رضاه، وتعظيم قدره في النفس، فيؤدي ذلك إلى حرص الأب على التواجد داخل بيته أطول فترة ممكنة لممارسة دوره في قيادة أهل بيته إلى الله، وربط حياتهم به سبحانه؛ ومن ثمَّ فإنه لن يحرص على العمل الإضافي، أو السفر للخارج وترك الأولاد مع أمهم بدعوى توفير وسائل الحياة المرفهة لهم، وتحصيل متطلبات تعليمهم الباهظة، بل سيوضع التعليم في حجمه الحقيقي، كخادم للهدف الأساسي وليس غاية في حد ذاته.

.. ومن مظاهر الاهتمام بهدف إيجاد المسلم الصحيح أولًا أن الأبوين سيحرصان على عدم إلحاق أبنائهما بمدارس اللغات التي قد تجعل ولاء الدارسين فيها للغة أخرى غير لغة القرآن، وتجعلهم يعظمون شأن الحضارة الغربية ويوالونها ويرضون بغثها وسمينها؛ ومن ثمَّ يحتقرون الحضارة العربية الإسلامية، وهذا واقع مشاهد لكثير من خريجي تلك المدارس.

إنّ حرص كثير من الآباء على إلحاق أبنائهم في تلك المدارس ينبع من انبهارهم بالغرب وانهزامهم أمام حضارته بكل ما فيها من خير وشر، وحرصهم على سير أبنائهم في هذا الطريق ليضمنوا لهم النجاح في حياتهم.

هذا التصور بلا شك سيحل محله التصور الصحيح عندما يتأكد الجميع أننا لسنا كبقية الأمم، ولن نتقدم بمثل ما تقدموا به، بل بالعودة إلى الله أولًا، ثم بالأخذ بالأسباب المادية المتاحة أمامنا ثانيًا.

.. **ومــن فوائد البدء بالتربية الإيمانية، والتزكيــة، والتركيز على صلاح الفرد،** أنها ســتعرِّضنا للتوفيق والتأييد الإلهي، فيتضاعف أثر الأسباب المادية بعد ذلك، كما حدث مع المسلمين الأوائل الذين برعوا في شتى فروع العلوم، وأقاموا صرح الحضارة الإســلامية العريقة، وما كان ذلك ليحدث لولا توفيق الله لهم، ومباركته لجهودهم.

.. **ومــن فوائدها كذلك:** عدم التعلق بالأســباب، بل الاجتهاد في تحصيلها، ثــم التعلق بــالله وحده في تحصيل النتائج، وهذا من شــأنه أن يســكب في الفرد الســكينة والطمأنينة فلا يبدو فزعًا منزعجًا كلما قلَّ حجم الأسباب المتاحة أمامه: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢].

وخلاصة القول

إن ســر تقدمنا مرتبط بمــدى علاقتنا بالله، وإننا لا بــد أن نجتهد في الأخذ بالأســباب المادية بالمفهوم الذي يسود بيننا الآن، ولكن بعد أن نجتهد في الأخذ بالأسباب المعنوية التي تُعنى بصلاح الفرد كأساس للنجاح في كل الميادين.

فالأمــة بحاجة إلــى الربانيين المتواضعيــن أولًا ليكونوا بعــد ذلك في المكان الــذي يقيمهــم الله فيــه. أمــا بــدون رهبــان الليــل، البكائيــن بالأســحار، خافضــي الجنــاح للمؤمنيــن،... فــلا أمــل فــي تقــدم ولا رفعــة بــل سيســتمر الوضــع القائم وسيزداد سوءًا.

ألــم يقل ســبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾؟ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

وبهذا المفهوم انتصر المسلمون الأوائل على أعدائهم.

تأمل معي ما قاله سعد بن أبي وقاص لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يصف له المجاهدين في معركة القادسية: «...كانوا يُدَوُّون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل كدويِّ النحل، وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود، ولا يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة»(١).

وفي فتح إفريقية يصف عبد الله بن الزبير أحوال المقاتلين فيها فيقول:

«واستشهد الله جل جلاله رجالًا من المسلمين، فبتنا وباتوا، وللمسلمين دوي كدوي النحل، وبات المشركون في ملاهيهم وخمورهم، فلما أصبحنا زحف بعضنا على بعض، فأفرغ الله علينا صبره، وأنزل علينا نصره، ففتحناها من آخر النهار» (٢).

• • •

(١) أخرجه الطبري في التاريخ (٣/ ٥٨٣) وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٥٠). دار الفجر للتراث- القاهرة.

(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء للكلاعي (٤/ ٥٣، ٥٤) - دار عالم الكتب - بيروت.

الفصل الثالث

المعجزة التي نحتاجها

- الحلقة المفقودة.
- الدافع الذاتي.
- ما المقصود بالقوة الروحية؟
- نحتاج إلى معجزة.
- إنه القرآن العظيم.
- مظاهر قوة تأثير القرآن.

المعجزة التي نحتاجها

الحلقة المفقودة

كان الجهل بحقائق الدين يضرب بأطنابه في جنبات الأمة، وكان من المستغرب أن يتم الحديث عن شمول الإسلام، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وأنه يتناول مظاهر الحياة جميعًا... ثم ظهرت الصحوة الإسلامية وانتشرت الأفكار الصحيحة حول الإسلام، وتناقلتها الكتب والمحاضرات، وبدأت أفهام الناس تتغير حول طبيعة الدين... كل هذا قد تم خلال القرن الرابع عشر الهجري (القرن العشرين) خاصة في نصفه الأخير...

إلا أنه في السنوات الماضية، ومع انتشار الفضائيات والشبكة العنكبوتية ازداد الأمر وضوحًا، وتصححت مفاهيم كثيرة في أذهان الناس، وإن أردت دليلًا على ذلك فاجلس مع أي مجموعة تقابلك من جيرانك أو أقاربك أو زملائك، وافتح باب النقاش حول موضوع من الموضوعات المطروحة على الساحة مثل سبب تخلف الأمة، أو خطورة دور اليهود، أو الأمراض الاجتماعية المنتشرة في مجتمعنا، ستسمع بلا شك كلامًا رائعًا، وحلولًا جيدة.

إذن فما هي مشكلتنا؟

المشكلة أن هذا الفهم الجيد لقضايا الأمة لا يتفق في الغالب مع سلوك هؤلاء الأفراد الذين يتحدثون ويشخصون مكامن الداء، فالقول في وادٍ والعمل في وادٍ

آخر، والفجوة واضحة بين العلم والعمل، والفكر والسلوك، والفهم والتطبيق... ولا يبالغ من يقول بأن الكم الهائل من برامج الإصلاح التي تُقدَّم للأمة عبر الفضائيات وغيرها من وسائل الإعلام المختلفة تكفي لصلاح الأجيال حتى قيام الساعة!

فالمشكلة الآن ليست في التوجيهات أو النصائح... المشكلة في تطبيق هذه الأمور.

الكثير يعلم مواصفات الزوج الناجح، أو الأب الناجح، أو الجار الناجح، لكنه لا يستطيع أن يكون كذلك، وصدق من قال:

غاض الوفاء وفاض الغدر واتسعت مسافة الخُلف بين القول والعمل

فما السبب؟!

السبب أن الفرد يسمع التوجيهات ويتمنى تنفيذها لكنه لا يجد قوة تدفعه لتطبيقها.

هو مقتنع تمام الاقتناع بما يسمع، لكنه لا ينفذه، وكأن شيئًا داخليًّا يثبطه ويقعده. وإذا ما وجد همة وعزيمة في لحظة ما للتطبيق، فإنه قد يفتقد تلك العزيمة والهمة في لحظات أخرى كثيرة، بل في سائر حياته.

معنى ذلك أن المشكلة في هذا العصر ليست في العلم والفهم بقدر ما هي في العمل والتطبيق، فصلاح الفرد الذي ينطلق من خلاله مشروع نهضة الأمة لن يتم إلا بالعمل، وفي نفس الوقت هناك تثاقل شديد تجاه العمل، فما الحل؟!

محاولات

ومع اتجاه العلماء والمصلحين إلى مخاطبة أفراد الأمة بضرورة العمل، وكثرة حديثهم بصيغة: علينا أن نفعل كذا، لا بد أن نقوم بكذا وكذا...، إلا أن الحديث في الغالب لا يتطرق إلى كيفية استنهاض الهمم وتقوية العزائم للقيام بهذه الأعمال بصورة دائمة.

نعم، هناك محاولات تُبذل في هذا الاتجاه، ولكنها في الغالب تعمل على شحذ همة الأفراد بصورة وقتية من خلال الحديث المؤثر الذي يخاطب المشاعر، ويدفع للسلوك فتتحسن أحوال وأفعال الفرد بعد سماعه لهذا الحديث المؤثر، لكنه يعود لسابق عهده بعد انتهاء تأثيره.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد ازداد في الآونة الأخيرة الحديث عن المهارات الإدارية والمتابعة كعنصر فعال وضامن قوي لتنفيذ الواجبات، وبالفعل فكلما قويت المتابعة وكانت لصيقة بالفرد ازدادت درجة تنفيذه للأعمال التي تطلب منه، ولكن لأن الدافع للعمل في الغالب لا ينبع من داخله فقد أصبحت الأعمال تُؤَدى بلا روح أو بصورة آلية؛ مما أدى إلى تحسن الشكل دون المضمون، والدليل على ذلك هو الواقع، والمعاملات، والتي تدل على أن هناك حلقة مفقودة، وأن الجهد الكبير الذي يُبذل في التعليم والتوجيه والمتابعة لا يقابله أثر إيجابي ملحوظ في السلوك، كل ذلك يحدث لأن الدافع المطلوب لقيام المرء بالعمل دافع خارجي وليس داخليًا.

ضامن التنفيذ

إن المعاني الإصلاحية الجيدة والفهم الصحيح لكثير من مسائل الدين

التي أصبحت شـائعة الآن بين المسـلمين -مع أهميتها- إلا أنها لا تكفي وحدها لإحـداث التغيير داخل الفرد؛ ومـن ثمَّ عودة الأمة إلى الله، بـل لا بد أن يواكبها وجود ضامن وطريقة تتكفل بتنفيذها.

هذا الضامن إما خارجي أو داخلي.

الضامن الخارجي يكون من خلال التوجيه وشحذ الهمم، وكذلك من خلال قوة المتابعة، وهذا وحده لا يكفي لاستمرارية الفرد في التنفيذ؛ لأنه مرتبط باستمرار التوجيـه والمتابعة في كل وقت، وهذا من المسـتحيل تحقيقه، ناهيك عن الأداء الشكلي الذي سيصاحب التنفيذ؛ ومن ثمَّ تظل الفجوة قائمة بين الواجب والواقع.

معنى ذلك أنه لا بد أن يكون الضامن لتنفيذ التوجيهات والتوصيات نابعًا من داخل الفرد، دافعًا له دومًا إلى التنفيذ طمعًا في نيل رضا الله ومثوبته.

وصدق من قال:

لا تنتهـي الأنفـس عـن غيهـا ما لـم يكن لها من نفسـها دافع

الدافع الذاتي

فلكي يصبح السر أفضل من العلانية، والأعمال خيرًا من الأقوال...

لكي نصل إلى مرحلة الانتباه والإيجابية والتلهف للقيام بأي عمل يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، لا بـد من وجود دافع داخلي وليس خارجيًّا؛ دافع يدفعنا باسـتمرار لفعل الصالحات وترك المنكرات...

لا بد من وجود قوة روحية تتولد باسـتمرار داخلنا، تضبط تصرفاتنا، وتحثنا على فعل الخيرات وتطبيق التوصيات التي تُلقى على مسامعنا.

ومما لا شك فيه أن هذه القوة الروحية التي تحول الواجب إلى واقع، وتزيل الفجوة بين العلم والعمل، وتدفع الفرد إلى الفعل من تلقاء نفسه تحتاج إلى مصدر يقوم بتوليدها باستمرار داخل كيانه.

فما هو هذا المصدر؟ وأين نجده؟!

لنتفق أولًا على معنى القوة الروحية، والمطلوب منها ثم ننتقل بإذن الله وعونه للتعرف على مصدر توليدها.

ما المقصود بالقوة الروحية؟

المقصود بالقوة الروحية هي العزيمة التي تتولد داخل الفرد، والحالة التي تسيطر عليه عندما تتجاوب مشاعره مع أمر من الأمور، فيشعر وكأن شيئًا من داخله يدفعه للقيام بفعل ما.

فعندما يستمع المرء إلى موعظة بليغة عن ضرورة الإنفاق في سبيل الله، وعن الخير والثواب الذي يعود على المنفق في الدنيا والآخرة، تجده وقد تجاوبت مشاعره مع ما يسمعه، وتولدت داخله عزيمة تقوده ربما لإخراج كل ما في جيبه في تلك اللحظة.

وعندما يرى الواحد منا وهو يسير في طريقه رجلًا يقوم بضرب ولد صغير، والولد يجهش بالبكاء ويسترحم المارة ليكفوا بأس الرجل عنه، فإنه من المتوقع أن تستثار مشاعره وتتولد تلك القوة والعزيمة داخل نفسه لتنتج تحركًا تجاه الحدث، ومحاولة لدفع الظلم عن الولد.

فالقوة الروحية إذن هي تلك الطاقة والعزيمة المتولدة من التأثير على مشاعر الإنسان، والتي من شأنها أن تدفعه للعمل.

هــذه القوة تتولد بالفعــل داخلنا وتدفعنا للعمل، ولكــن ليس بصورة دائمة، فمشــاهدة مناظر مأســاوية، أو رؤية فقير يتلوى من الجوع، أو قراءة في كتاب من كتب الرقائق... كل ذلك من شــأنه أن يهز مشــاعرنا، وقــد يدفعنا للبكاء والعمل ولكن بصورة وقتية، يعود المرء بعد انتهاء تأثيرها إلى سابق عهده.

المطلوب من القوة الروحية

إذن لكي نســتمر في حالة التوهج والانتباه؛ ومن ثمَّ القيام بالأعمال المطلوبة منا بذاتية وتلقائية، لا بد أن تتولد داخلنا تلك القوة الروحية بصورة دائمة ومستمرة.

فكيف يتم ذلك؟!

كيف يتم ذلك وقد خلصنا مما سبق بيانه أنه من الضروري أن يكون الدافع الذي يدفع المرء للقيام بالعمل المطلوب منه دافعًا ذاتيًّا ينبع من داخله بصورة أساسية؟!

أي أن القوة الروحية المطلوبة ينبغي أن توفر باستمرار هذا الدافع الذاتي.

وهذا معناه أننا بحاجة إلى نبع متجدد، ومصدر دائم لتوليد تلك القوة والدافع الذاتي لدى الأفراد.

المواصفات المطلوبة

ولأننا نتحدث عن أمر يخص نهضــة الأمة جمعاء، والذي ينطلق من صلاح الفرد؛ فلا بــد أن يكون مصدر تحصيل تلك القوة الروحية متاحًا للجميع؛ الرجل والمرأة، العالم وغير العالم، العربي والأعجمي...

ولا بد أن يكون هذا المصدر مجمعًا عليه من سائر أفراد الأمة وليس محل خلاف بينها، وأن يكون من مواصفاته كذلك ألا يمل منه أحد، وأن يكون لديه القدرة -بإذن

الله- على التعامل مع المستويات المختلفة لأفراد الأمة في كل زمان ومكان...

فما هو هذا المصدر الفريد الذي يجمع بين هذا كله؟!

لو نظرنا إلى المواصفات التي ينبغي أن تتوفر في المصدر المطلوب لتوليد القوة الروحية لوجدناها مواصفات غير عادية، وقد يتجه التفكير إلى أن هذا المصدر شيء خارق لا يمكن وجوده، فهو أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع!

نعم، لا يوجد مصدر لديه القدرة على القيام بهذا الدور الخطير إلا إذا كان شيئًا معجزًا، خارقًا للعادة، ذا قوة تأثيرية جبارة ومستمرة.

نعم -أخي القارئ- نحتاج إلى معجزة تقوم بهذا الدور، فأين تلك المعجزة؟

لنفكر سويًّا في الأمر، فالأمة لن ينصلح حالها إلا بصلاح أفرادها وعودتهم إلى الله، وصلاح الأفراد مرتبط بوجود دافع ذاتي يدفعهم لفعل ما يكلفون به من توجيهات وتوصيات ليصبح العمل قرينًا للعلم، والدافع الذاتي يحتاج إلى مصدر لتوليده باستمرار، ذلك المصدر ينبغي أن يسع الجميع وألا يختلف عليه اثنان و...

فهل سيتركنا الله هكذا دون هذا المصدر أو تلك المعجزة؟

هل سيتركنا الله هكذا وهو الودود الرحيم الذي يريد لنا الخير؟ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

يقينًا أنه سبحانه ما كان ليترك عباده هكذا يتخبطون ويدورون بلا فائدة حول أنفسهم، وقد كتب على نفسه الرحمة، وأعلمنا أنه رءوف، رحيم، ودود، كريم...

مـن المؤكد أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لـن يحرمنا من تلك المعجزة التي سـتؤدي هذا العمل المطلوب وتتوافر فيها المواصفات المشار إليها آنفًا وغيرها وغيرها...

فأين هي هذه المعجزة؟ وهل هي موجودة بالفعل أم غائبة؟

إنه القرآن العظيم

لـو فكرنا في هذا الأمر، وتذكرنا فضل الله الدائم على عباده، لوجدنا أنفسـنا أمام حقيقة واضحة وهي أنه لا بد وأن تكون هذه المعجزة موجودة بيننا بالفعل.

نعم، قد تكون كذلك لكننا لا نعرفها أو لا ندرك قيمتها، ولا نتعامل معها على حقيقتها، ولكنها بالتأكيد موجودة، فما هي تلك المعجزة؟!

لو تفكرنا في المعجزات السـابقة لوجدناها مرتبطـة بزمان محدد، أو بحالة محددة، أو بشـخص محدد كعصا موسـى، وناقة صالح، وإحياء عيسـى للموتى بإذن الله.

كل هـذه المعجـزات مرتبطـة بأصحابهـا مـن الرسـل، إلا معجـزة واحـدة اختـص الله بهـا أمتنـا الإسـلامية، فلـم يجعلهـا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تخـص زمانًـا بعينـه أو ترتبـط بشـخص الرسـول ثـم تنتهي بوفاتـه، بل جعلهـا صالحة لكل زمـان ومكان حتـى قيـام السـاعة، ألا وهـي القـرآن العظيـم، وقد تكفـل -سـبحانه- بحفظه من التحريـف والتبديـل لتسـتمر معجزته في القيـام بدورها الخطير فـي تغيير الأفراد، وبـث الـروح فيهم، وتوليـد القوة الروحيـة والدافـع الذاتي داخلهم باسـتمرار في أي زمـان ومـكان: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشـورى: ٥٢].

تعرف بنفسك على المعجزة

لعلك -أخي القارئ- متعجب بأن ما نبحث عنه موجود بيننا!

لعل الأفكار تراودك حيال بساطة هذا الحل وسهولته وقربه منا!

نعم، لـك بعض العذر في ذلك، كيف لا وقد هجرنـا هذه المعجزة، وورثنا تعاملًا خاطئًا معها جعلنا نحصرها في أذهاننا داخل نطاق التقديس الشكلي فقط، مما حرمنا الانتفاع بها؛ لذلك أدعوك -أخي- إلى أن تبحث في القرآن عن الآيات التي تتحدث عن القرآن وتسـجلها بقلمك ثم تنظر إليهـا بعد ذلك، وتُخرج منها مواصفات وقوة تأثير ومجالات عمل هذا الكتاب...

افعل ذلك بنفسك لتدرك بعضًا من حجم هذه المعجزة، وأنها هي التي نبحث عنها، وهي التي نريدها تمامًا.

مظاهر قوة تأثير القرآن

لقـد أنزل الله القرآن العظيم من السـماء ليكون كتاب هداية وشـفاء وتقويم وتغيير لكل من يُحسـن الإقبال عليه ويدخل في دائـرة تأثير معجزته: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

تأمـل معي تلك الآية التي تصف لنا صورة من صـور تأثير القرآن ومخاطبته للمشـاعر وتوليده للقـوة الروحيـة: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

... هــذا القرآن الــذي بين أيدينا له قوة تأثير هائلــة لا يمكن للعقل أن يدرك أبعادهــا أو يحيط بها، ولقد ضرب الله لنا بعض الأمثلة التي تبين ذلك لندرك قيمة المعجــزة التي بين أيدينا... انظر إلى قوله تعالــى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد: ٣١][(١)]. وجواب الشــرط محذوف وتقديره: لكان هذا القرآن.

فالآية تخبرنا بأن القــرآن قادر -بإذن الله- على أن يُحرك الجبال من مكانها، ويُقطِّــع الأرض، ويُكلم الموتى... فــأي قوة تلك التي تســتطيع أن تحرك جبلًا مــن مكانه، أو تقطــع الأرض فتجعلهــا منفصلة عن بعضها، بــل وتكلم الموتى فيستجيبون؟! إنها بلا شك قوة لا يمكن للعقل البشري أن يحيط بها أو يدرك أبعادها.

فإن كانت تســتطيع أن تفعل ذلك كله -بإذن الله- فماذا عســاها أن تفعل بي وبك إن دخلنا إلى دائرة تأثيرها؟!

لقد بلغ من قوة تأثير القرآن العظيم أنه شــيَّب شــعر رسول الله ﷺ، فهذا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لرسول الله ﷺ: يا رسول الله قد شبت، فقال ﷺ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**»[(٢)].

---

(١) يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: يقول تعالى مادحًا للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومفضلًا له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره.
وجاء في سبب نزول هذه الآية أن كفار مكة قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع، فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله هذه الآية.

(٢) الترمذي في التفسير باب ومن سورة الواقعة (برقم: ٣٢٩٧).

هذا القرآن

هذا القرآن جعل قلب جبير بن مطعم كاد يطير عندما استمع إلى بعض آياته! ففي البخاري عن محمد بن جبير عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي[١].

وفي رواية: فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧] كاد قلبي أن يطير[٢].

هذا القرآن وقوة تأثيره واستحواذه على المشاعر وسيطرته عليها هو الذي جعل رسولنا ﷺ يردد في قيامه طيلة الليل قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[٣] [المائدة: ١١٨].

قوة تأثير هذه المعجزة الجبارة هي التي جعلت عبَّاد بن بِشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتحمل ألم إصابته بالسهام الثلاثة، التي أطلقها عليه أحد المشركين وهو قائم يصلي ويتلو آيات القرآن، فلم يقطع قراءته إلا خشية تعرض المسلمين للخطر وذلك في غزوة ذات الرقاع. هذا القرآن استمع إليه نفر من النصارى الذين يبحثون عن الهُدى فماذا حدث لهم؟

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة: ٨٣].

---

(١) البخاري (٥/ ٨٦ برقم: ٤٠٢٣) في صفة الصلاة (الأذان) باب الجهر في المغرب.

(٢) البخاري كتاب المغازي (برقم: ٤٠٢٣)، كتاب تفسير القرآن باب سورة الطور (برقم: ٤٨٥٤).

(٣) النسائي (٢/ ١٧٧ برقم: ١٠١٠) في الافتتاح باب ترديد الآية.

وليس هذا في عالم الإنس فقط، فحين استمع إليه نفر من الجن كان قولهم: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الجن: ١، ٢].

إنه شيء لا يمكن للعقل للبشري القاصر أن يدرك أبعاده ومدى قوة تأثيره: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ ﴾ [الحشر: ٢١].

معنى ذلك بوضوح: أن القرآن الذي بين أيدينا هو الذي تحتاج إليه الأمة جمعاء، ليكون بمثابة المصدر والمولد للطاقة والقوة الروحية بقدرته الفذة على التأثير في المشاعر.

القرآن وحقائقه التي بينها رسول الله ﷺ هو الذي يصلح لكي يكون بداية قوية لنهضة الأمة: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩ ﴾ [النحل: ٨٩].

أخي..

يقول لنا ربنا: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فبماذا نجيبه؟!

نعم يا رب يكفينا، يكفينا «سمعنا وأطعنا».

وأخيرًا: وحين نخص الحديث عن القرآن فلا يعني هذا أبدًا أننا نغفل السنة، فالسنة تابعة للقرآن، شارحة له، مبينة لما أجمل فيه، وهي الوحي الثاني، ولكن حديثنا هنا عن القرآن كمعجزة اختص الله بها الأمة، وأودع فيها -دون غيرها- من الإعجاز التأثيري ما يغير الله به أي إنسان؛ ومن ثم تتغير الأمة وتنهض بإذن الله.

الفصل الرابع

لماذا القرآن هو سر نهضتنا؟

- **أولًا: القرآن اختيار رب العالمين لعباده أجمعين.**
- **ثانيًا: القرآن يجمع بين الرسالة والمعجزة.**
- **ثالثًا: القرآن يخاطب الفكر والعاطفة.**
- **رابعًا: القرآن يولد باستمرار القوة الروحية.**
- **خامسًا: القرآن ميسر للذكر والفهم.**
- **سادسًا: القرآن هو الكلمة السواء التي لا يختلف عليها اثنان.**
- **سابعًا: القرآن عبادة متجددة لا تُمل.**
- **ثامنًا: القرآن وسيلة مجربة.**
- **تاسعًا: القرآن هو وصية الرسول ﷺ بأنه المخرج من الفتن.**

لماذا القرآن هو سر نهضتنا؟

عندما نقول -بعون من الله-: إن القرآن هو سر نهضة هذه الأمة، وإنه مخرجها الآمن من النفق المظلم الذي تسير فيه، وإنه قادر -بإذن الله- على بث الروح في جسدها، ومعالجة نقاط ضعفها، وإعادة ما سُلب من أمجادها، فإن هذا القول لا يأتي من فراغ، بل تُؤيده شواهد وأسباب كثيرة نذكر كثيرًا منها هنا -أخي القارئ- لعلها تشحذ الهمم وتقوي العزائم للانطلاق الصحيح نحو هذا الكنز المهجور..

وهي على سبيل الإجمال:

- **أولًا**: القرآن اختيار رب العالمين لعباده أجمعين.
- **ثانيًا**: القرآن يجمع بين الرسالة والمعجزة.
- **ثالثًا**: القرآن يخاطب الفكر والعاطفة في آن واحد.
- **رابعًا**: القرآن لديه القدرة -بإذن الله- على الاستثارة الدائمة للمشاعر والضرب على أوتار القلوب، وتوليد القوة الروحية.
- **خامسًا**: القرآن ميسر للذكر والفهم.
- **سادسًا**: القرآن هو الكلمة السواء التي لا يختلف عليها اثنان.
- **سابعًا**: القرآن عبادة متجددة لا تُمل.
- **ثامنًا**: القرآن وسيلة مجربة.
- **تاسعًا**: القرآن هو وصية الرسول ﷺ بأنه المخرج من الفتن.

ولننتقل بعد هذا الإجمال إلى الحديث عن تلك الأسباب بشيء من التفصيل.

أولًا: القرآن هو اختيار رب العالمين لعباده أجمعين

الله عَزَّوَجَلَّ هــو الرب الذي يُربِّي عباده ويتعاهدهم ويمدهم بما يحتاجون إليه من ســائر الإمدادات كالطعام والشــراب والهواء والحفظ والرعاية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل: ١٠ ، ١١].

هذا الرب العظيــم يحب عباده جميعًا ويريد لهم الخير والنجاح في الاختبار الــذي نزلوا إلى الأرض لتأديته، يريد لهــم جميعًا دخول الجنة: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد اختص الإنســان لنفســه، وكرمه على سائر خلقــه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولأنه سبحانه هو الذي خلق الإنسان ويعلم عنه أكثر مما يعلم هذا الإنسان عن نفســه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤]، فلقد علم -سبحانه- بســابق علمه حاجة هذا الإنســان الدائمة إلى دواء يشفيه، ويبصره بطريق الهدى، ويُولد لديه الطاقة والعزيمة للسير في هذا الطريق، فهيأ له دواءً فريدًا يصلح له حتى قيام الساعة. فكان القرآن: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [فصلت: ٢].

والأمر اللافت للانتبــاه أن هناك العديد من الآيات القرآنية التي تؤكد لنا هذا المعنى وتخبرنا بأن القرآن: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٠].

فرب العالمين، المربي للبشر جميعًا هو الذي أنزل لهم القرآن.

فالقرآن هو اختيار الله -رب العالمين- لعباده أجمعين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾ [يونس: ٥٧].

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال:

«إن هذه البشرية -وهي من صنع الله- لا تُفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صُنع الله، ولا تُعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده -سبحانه- وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق، وشفاء كل داء: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد الآلة إلى صانعها، ولا أن تذهب بالمريض إلى بارئه، ولا تسلك في أمر نفسها، وفي أمر إنسانيتها وفي أمر سعادتها أو شقوتها، ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة، وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذي صنع الجهاز، ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه فترده إلى المصنع الذي منه خرج، ولا أن تستفتي المبدع الذي أنشأ هذا الجهاز الإنساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف، الذي لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذي أبدعه وأنشأه: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤ ﴾ (١).

[الملك: ١٣ ، ١٤] ».

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٥).

ثانيًا: القرآن يجمع بين الرسالة والمعجزة

القرآن دون غيره من الكتب السماوية السابقة يجمع بين أمرين عظيمين: الرسالة والمعجزة..

فالرسالة القرآنية شأنها شأن الكتب السابقة تدل الناس على الله، وتهديهم إلى الطريق الموصل إليه، وتبين لهم العقبات والمنعطفات التي قد تقابلهم وكيف يتجاوزونها: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

ولقد كانت هذه وظيفة الإنجيل أيضًا: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٦].

وكذلك التوراة وسائر الكتب: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤].

ولكن هل معرفة الطريق وحدها تكفي لسلوك المرء إياه، أليس هناك عقبات داخل الإنسان تحول بينه وبين السير في طريق الهدى؟

أليس الهوى وسطوته على القلب له دور كبير في تثبيط الإنسان وإقعاده عن السير في طريق الله؟

من هنا تظهر عظمة القرآن وأفضليته على سائر الكتب السابقة، فلقد أودع الله فيه معجزة خارقة، أعظم بكثير من معجزات عيسى وموسى وصالح وسائر الرسل

والأنبياء السابقين عليهم أفضل الصلوات والتسليم.

إن المعجـزة القرآنية الخارقة ليسـت فقط في بلاغتـه، وخلوده وحفظه من التحريف، وليسـت فقط في صلاحية القرآن لكل زمان ومكان، بل إنها فوق ذلك بكثير، فسرُّ المعجزة القرآنية يكمن في قدرته الفذة -بإذن الله- على التغيير، وبث الروح والحياة الحقيقية، وتوليد الطاقة فيمن يحسن الإقبال عليه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

المعجزة القرآنية تقوم بتوصيل تيار الحياة إلى القلب فيفيق من غفلته، ويحيا بعد موته، وينطلق إلى ربه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولئن كانت الرسـالة القرآنية توضـح للناس الطريق الموصـل إلى الله، فإن المعجـزة القرآنية تأخذ بأيديهم إلى هذا الطريق، وتسـير بهم، وتقودهم، وتتولى إخراجهم من الظلام الذي يعيشـون فيه إلى نـور الله المبين في الدنيا، والجنة في الآخرة.

وهنـاك العديد من الآيات التي تبين هاتين الوظيفتين، منها ما جاء في سـورة المائـدة: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٥ ، ١٦].

فهنا توضح الآيات وظيفة القرآن كرسالة هادية، أما وظيفته كمعجزة فتوضحها بقيـة الآية: ﴿ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ ﴾ [المائدة: ١٦].

فالإخراج من الظلام.. من المكان الذي ألفه الإنسـان، يحتاج إلى قوة دافعة،

وطاقة تتولد داخله تُيسِّـر له اتخاذ قرار النهـوض والخروج مما تعود عليه. وهذه هي وظيفة المعجزة القرآنية، والتي اختص الله بها أمة الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

يعلـق الحافظ ابن كثيـر على هذا الحديث فيقول: معنـاه أن معجزة كل نبي انقرضـت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد!

فإنـه ليس ثمَّ حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فـي العقول والنفوس من هذا القرآن، الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله(٢).

ثالثًا: القرآن يخاطب الفكر والعاطفة في آن واحد

مـن عجائب القرآن التي ينفرد بها عن غيره أنـه يخاطب الفكر والعاطفة معًا وفـي آن واحد، يخاطب العقل فيقنعـه بما يريد إقناعه به، كقولـه تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾** ﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي نفس الوقت يتسـرب هذا الخطاب إلى المشـاعر فيسـتثيرها ويدفعها للتجاوب معه فتتحول القناعة العقلية إلى إيمان قلبي، كما في قوله تعالى في الآية التاليـة: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾** ﴾ [البقرة: ٢٤]. وهذا لا يمكن حدوثه مع أي خطاب آخر.

(١) رواه البخاري في الفضائل (برقم: ٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١/ ١٣٤برقم: ١٥٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢ / ٤٧١).

فأهل الــرأي إذا ما أرادوا أن يقنعوا الناس بفكرة (ما) اســتخدموا أســاليب الإقنــاع المختلفة، وبالفعل يقتنع العقل، ولكن تظل هذه الفكرة حبيســة فيه، ولا تنتقل إلى القلب لتصبح إيمانًا يدفع للعمل بمقتضاها، والســبب في ذلك أنهم لم يخترقوا القلب بفكرتهم، ولم يؤثروا على المشــاعر وهذا أمر بعيد المنال عنهم، فإمكاناتهم وإمكانات البشر جميعًا لا تسمح بذلك.

وفي هذا المعنى يقول د. محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفــي النفس الإنســانية قوتان: قوة تفكير وقوة وجــدان، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتســجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معًا.

فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس؟

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء، فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غُلُوًّا في جانب، وقصورًا في جانب؛ فالذي يفهمك تتناقص قــوة وجدانه، والذي يقع تحت تأثير لــذة أو ألم يضعف تفكيره. وهكذا لا تقصد النفس الإنســانية إلى هاتين الغايتين قصدًا واحــدًا، وإلا لكانت مقبلة مدبرة معًا.

هذا مقياس تستطيع أن تتبين به في كل لسان وقلم أي القوتين كان خاضعًا لها حين قال أو كتب: فــإذا رأيته يتجه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية قلت: هذه ثمرة الفكرة.

وإذا رأيته يعمد إلى تحريض النفس أو تنفيرها، وقبضها أو بســطها، واستثارة

كوامن لذاتها أو ألمها، قلت: هذه ثمرة العاطفة، وإذا رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه.. وأما إن أسلوبًا واحدًا يتجه اتجاهًا واحدًا ويجمع في يديك هذين الطرفين معًا، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقًا وأزهارًا وأثمارًا معًا، فذلك لا تظفر به في كلام بشر، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية.

أما الله رب العالمين فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن. وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معًا: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

وأن يمزج الحق والجمال معًا يلتقيان، وأن يخرج من بينهما شرابًا خالصًا سائغًا للشاربين، وهذا ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت.

ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة؟

أوَ لا تراه في معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق، وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيب، وتبكيت وتأنيب؟ يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها؟

اقرأ مثلًا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٧٨ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وانظر: الاستدراج إلى الطاعة في افتتاح الآية بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وترقيق العاطفة بين الواترين والموتورين في قوله: ﴿ أَخِيهِ ﴾ وقوله: ﴿ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ وقوله: ﴿ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾، والامتنان في قوله تعالى: ﴿ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ ﴾ والتهديد في ختام الآية.

ثم انظر في أي شأن يتكلم؟ أليس في فريضة مفصلة وفي مسألة دموية؟

وتتبع هذا المعنى في سائر آيات الأحكام حتى أحكام الإيلاء والظهار.

ففي أي كتاب من كتب التشريع تجد مثل هذا الروح؟

بل في أي لسان تجد هذا المزاج العجيب؟ تالله لو أن أحدًا حاول أن يجمع في بيانه بين هذين الطرفين ففرق همه ووزع أجزاء نفسه، لجاء بالأضواء المتنافرة ولخرج بثوب بيانه رقعًا ممزقة[1].

رابعًا: القرآن لديه القدرة -بإذن الله- على الاستثارة الدائمة للمشاعر والضرب على أوتار القلوب وتوليد الطاقة والقوة الروحية

أودع الله في القرآن خاصية عجيبة تجعله قادرًا -بإذن الله- على القيام بدوره الخطير في توليد القوة الروحية الدافعة للعمل بمقتضى آياته، هذه الخاصية هي قدرته الفذة -بإذن الله- على الاستثارة الدائمة للمشاعر.

ونلحظ طرفًا يسيرًا جدًّا من هذه الخاصية في لفظه وبيانه.

فبالنسبة للفظه وتأليف حروفه وكلماته نجد أن نَظْمه وجرسه -عندما يُقرأ بترتيل صحيح- له وقع مؤثر غاية التأثير على النفس، فله جمال توقيعي يأخذ بمجامع القلوب؛ من توزيع الحركات والسكنات، والمدَّات والغنات، والاتصالات والسكنات، لا يمكن أن تجده في غيره.

يقول محمد عبد الله دراز: «أول ما يلاقيك ويسترعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره».

(١) النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز (١٤٣-١٤٦) بتصرف.

دع القــارئ المجــوِّد يقرأ القرآن يرتلــه حق ترتيله، ثم انتبذ منــه مكانًا قصيًّا لا تســمع فيه جرْس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وســكناتها، ومدَّاتها وغُنَّاتها، واتصالاتها وسكناتها، ثم ألق ســمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جُرِّدت تجريدًا أو أرسلت ساذجة في الهواء. فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جُرِّد هذا التجريد، وجوِّد هذا التجويد.

ستجد اتســاقًا وائتلافًا يسترعي من سمعك ما تســترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموســيقى ولا بأوزان الشــعر، ذلك أنك تسمع القصيدة من الشــعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتًا بيتًا، وشــطرًا شــطرًا، فلا يلبث سمعك أن يمجهــا، وطبعك أن يملها، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد، بينما أنت من القــرآن أبدًا في لحن متنوع متجدد، تنتقل فيه بين أســباب وأوتار وفواصل، على أوضــاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب ســواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم. بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

هــذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يســمع القرآن حتى الذين لا يعرفون لغة العرب، فكيف يخفى على العرب أنفسهم» ؟![1].

ومــع جماله التوقيعي يأتي جماله التنســيقي في رصــف حروفه وتأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة[2]؛ مما يزيد من قوة تأثيره على المشاعر.

(١) النبأ العظيم (١٢٧-١٣١).

(٢) يقول د. دراز: «فإذا ما اقتربت بأذنك قليلًا قليلًا، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة. فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر، وذاك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النّفَس، وآخر يحتبس عنده النفس. وهلمّ جرًا، فترى الجمال اللغوي ماثلًا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة:=

بحر لا ساحل له

هذا من ناحية القشـــرة الخارجية للفظ القرآن، أما ما يخص بيانه ومعانيه وقوة تأثيرهـــا على القلب فلا يمكن لأحد كائنًـــا من كان أن يدرك أبعادها جميعًا، وإنما هي رشـــفات نرتشفها من بحر لا ســـاحل له! ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٩].

فالبيان القرآني يحمل شـــتى أنواع الأساليب التي تخاطب العاطفة، وتضرب على أوتار القلوب فتستثيرها وتأخذ بمجامعها وترجها رجًّا عنيفًا، فيحدث التفاعل وتتولد الطاقة والقـــوة الروحية وتقوى العزيمة، وتشـــتد الإرادة للقيام بما تحمله الآيات من توجيهات.

فتجد القرآن مليئًا بأســـاليب الترغيب والترهيب، والتشـــويق، ولفت الانتباه، وضرب الأمثال، والقصة، والتخيير، والاســـتدراج، والترقيق، والتنفير، والتحذير، والتشجيع، والإشهاد، والاستشهاد، وإثارة مشاعر الغيرة والتنافس....

هذا وغيره تجده بســـهولة عند قراءتك لبضع آيات من القرآن، فإذا ما اجتمع فـــي القراءة الترتيل الصحيح حيث التأثـــر بالنظْم والجرْس، مع التفكر والتجاوب حيث التأثر بالمعنى تولدت القوة الروحية التي ننشدها بدرجة ما.

فـــإن أردت مثالًا لتأثير التلاوة الصحيحة في المعنـــى، وما يحدثه من أثر في

= لا كركرة (إعادة الشيء مرة بعد مرة) ولا ثرثرة، ولا رخاوة (استرخاء ولين) ولا معاظلة (تعقيد الكلام) ولا تناكر ولا تنافر (تنافر بين الحروف) وهكذا ترى كلامًا ليس بالحضري الفاتر ولا بالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البداوة وفخامتها برقة الحضر وسلاستها، وقُدّر فيه الأمر تقديرًا أن لا يبغي بعضها على بعض» النبأ العظيم (١٣٢ ، ١٣٣).

القلب، وبعد ذلك البدن في الحركة فاقرأ -إن شئت- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾[المدثر: ١، ٢]، وكذلك قوله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا ﴾[آل عمران: ١٩٣]. وقل مثل ذلك على إيحاءات ألفاظ: سارعوا -سابقوا- خروا سجدًا وبكيًّا، وأثر ذلك على القلب والبدن.

كل هذه الخصائص في جانب والتأثير الفذ لروح القرآن حين تمس القلب في جانب آخر، بل لا يقارن تأثير روح القرآن على القلب بأي تأثير آخر: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا ﴾[الشورى: ٥٢]. ولئن كانت هذه الروح غائبة عنا حين نتلو القرآن بسبب الأقفال والطبع الذي يغطي قلوبنا فإن هذا لا ينفي وجودها، فالمريض يجد طعم العسل مرًّا.

السر الأعظم

إن سر معجزة القرآن الفذة يكمن بالأساس في روحه التي -حين تُفتح لها القلوب وتمسها- تُحدث زلزالًا ضخمًا في كينونة المتلقي كما حدث مع الجيل الأول، ولئن كنا لا نشعر بهذا الزلزال فلأننا محرومون ومعاقبون لما أحدثناه من تعاملات خاطئة ومختلطة مع القرآن: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١ ﴾[الواقعة: ٨١]. ومعنى كلمة مدهنون أي: متهاونون.

ولكي نتصور معنى كلمة التهاون مع القرآن ولا نظن أنفسنا أننا لسنا من هؤلاء .. علينا أن نقرأ سبب نزول قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾[الحديد: ١٦].

فالصحابة وهم من هم عاتبهم الله جل شأنه بهذه الآية لنقص يسير في درجة خشوعهم عند التعامل مع القرآن: ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾[الحديد: ١٦].

فـإن كان الأمر كذلك وكان العتاب الشـديد للصحابة على نقص يسـير في الخشـوع عند التعامل مع القرآن؛ فإن معنى التهاون مع القرآن يشمل أمورًا كثيرة نقع فيها.

خامسًا: القرآن ميسر للذكر والفهم

من المزايا العظيمة للقرآن أنه ميسر للذكر: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ١٧]. ففي أي وقت بالليل أو النهار، وفي أي مكان طاهر يستطيع المرءُ أن يلتقي مع القرآن.

لنتخيل أن تكون قراءة القرآن مقصورة فقط على أزمنة محددة أو أماكن معينة كالمسـاجد مثلًا، كيف سـيكون العنت الذي نجده؟!... لكـن الله عَزَّوَجَلَّ الودود الرحيـم جعل تناوله بهذا التيسـير لتتاح الفرصة للجميـع أن يلتقوا به في الوقت الذي يروق لهم، وهذا -بلا شـك- يعطي للقرآن مزية عظيمة في استيعابه لجميع الأفراد باختلاف ظروفهم وأحوالهم.

خطاب للعامة وخطاب للخاصة

ومع تيسُّـر القرآن للقراءة في أي وقت وأي مكان فإنه كذلك ميسـر للفهم، فخطابه موجَّه للعامة والخاصة.

يقول د. دراز: وهاتان غايتان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به (العامة) لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب.

ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشـارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم

مــن ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لــك -إن أردت أن تُعطي كلتا الطائفتين حظها كاملًا مــن بيانك- أن تخاطب كل واحدة منها بغير ما تخاطب به الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال.

فأمــا أنَّ جملة واحدة تُلقى إلى العلماء والجهــلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلــى الســوقة والملوك، فيراها كل منهــم مُقَدّرة على مقــاس عقله، وعلى وفق حاجته، فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم.

فهــو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحســن كلام وأقربــه إلى عقولهم، لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضــع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على الســواء. ميســر لكل من أراد: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ١٧].

القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى

من وســائل تيســير القرآن للقراءة أنه كتاب موجز مع أن ما يحتويه من معانٍ عظيمة يحتاج عرضها إلى الكثير من المجلدات الضخمة.

تخيــل -أخــي القــارئ- أن القــرآن يمــلأ عــدة مجلــدات! هــل سـيقبل عليــه الناس؟ هل سيتسـنى لهم قراءته من أوله إلى آخره أم سـيهابون ذلك ويتكاسـلون عــن إتمامه؟!

هذا الإيجــاز المعجز يجمع بين القصد في اللفظ والوفــاء بالمعنى، وهذان ضــدان لا يمكن أن يجتمعــا في أي كلام غير القرآن كما يقــول د. دراز: «فالذي يعمــد إلى ادخار لفظه وعــدم الإنفاق منه إلا على حد الضــرورة لا ينفك من أن

يحيف على المعنى قليلًا أو كثيرًا... فالحذر يأخذه من الإكثار والإسراف... يبذل جهده في ضم أطرافه وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق، ووسائل التقرير والتثبيت، وما إلى ذلك مما تمس إليه حاجة النفس في البيان، حتى يخرجه ثوبًا متقلصًا يقصر عن غايته، أو هيكلًا من العظم لا يكسوه لحم ولا عصب... ورب حرف ينقص من الكلام يذهب بمائه ورونقه، ويكسف شمس فصاحته.

والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره، وإبراز كل دقائقه لا يجد له بُدًّا من أن يمد في نفسه مدًّا؛ لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره، ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة، فإذا أعطى نفسه حظه من ذلك لا يلبث أن يباعد ما بين أطراف كلامه، ويبطئ بك في الوصول إلى غايته فتحسُّ بقوة نشاطك وباعثة إقبالك آخذتين في التضاؤل والاضمحلال»[1].

«فإن سرَّك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم، تجد بيانًا قد قدِّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير».

يؤدي إليك من كل معنى صورة نقية وافية: (نقية) لا يشوبها مما هو غريب عنها، (وافية) لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية... كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه.

ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعد ما أحصته كفك من الكلمات عدًّا، ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجًا عن الدفتين، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك. ثم انظر: كم كلمة تستطيع أن تسقطها

(١) النبأ العظيم (١٣٨، ١٣٩).

أو تبدلها من هذا الكلام دون إخلال بغرض قائله؟ وأي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها هناك؟

فكتاب الله -كما يقول ابن عطية- «لو نُزعت منه لَفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد». بل هو كما وصفه الله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [١] [هود: ١].

القرآن إيجاز كله

«القرآن إيجاز كله، سواء مواضع إجماله ومواضع تفصيله، والقرآن يستثمر دائمًا برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني... أجل، تلك ظاهرة بارزة فيه كله، يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب؛ ولذلك نسميه إيجازًا كله... فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى»[٢].

سادسًا: القرآن هو الكلمة السواء التي لا يختلف عليها اثنان من الأمة

لا يمكن لعاقل أن يُنكر الخلافات القائمة بين أبناء الأمة الإسلامية، والخلاف بين الناس أمر واقع ما له من دافع، لاختلاف البيئات والأفهام والثقافات...

وهو محمود لو كان اختلاف تنوع بين الطوائف والمذاهب المختلفة حين

(١) النبأ العظيم (١٤١، ١٤٢).
(٢) المصدر السابق (١٥٨، ١٥٩).

يسعى الجميع لتكميل بعضهم على أرضية مشتركة.

وهو محمود لو كان خلافًا في المساحة التي يمكن الخلاف فيها، فالصحابة والسلف اختلفوا فيما بينهم، ولكن لم يختلفوا في الكليات والأصول، بل في الفرعيات.

وهو محمود كذلك لو لم يصاحبه تعصب واعتداد بالرأي وتسفيه وانتقاص للمخالفين واحتقار جهودهم أو الحط من شأنهم.

ولكن الواقع يقول غير ذلك، فالأمة ليست على قلب رجل واحد، فبعض الخلافات تجاوزت المساحة المسموح بها بكثير.

وبعض الخلافات انتقل أصحابها من الناحية الموضوعية إلى الناحية الشخصية، فعمدوا إلى تجريح الأشخاص والهيئات والتشهير بهم.

ومما يدعو للأسف أن الكل يعتقد أنه على صواب، وأن طريقته هي الطريقة المثلى.

فما هو الحل لهذا الوضع الذي لا يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ، والذي بسببه تتعرض الأمة للخذلان والحرمان: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولقد ذهبت ريحنا بالفعل، وأصبحنا معرَّة الأمم، ومضرب المثل في التخلف والانحطاط.

الكلمة السواء

لحل هذه المشكلة المعقدة لا بد أن يكون هناك شيء يجتمع عليه الجميع...

يرضون به حكمًا يحل هذا الخلاف ويصوب للجميع مواقفهم، فما هو هذا الشيء الذي يمكنه أن يجمع حوله أمة تجاوز عددها المليار ونصف المليار؟!

لو بحثنا في كل شيء تحت أيدينا فلن نجد إلا شيئًا واحدًا يوافق الجميع على الاحتكام إليه... ألا وهو القرآن..

والعجيب أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سماه بالحبل، وكأن قدره ووظيفته أن ينتشل الجميع ويرفعهم ويوحدهم: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فحبل الله هو القرآن كما قال ابن مسعود وغيره.

ومما يؤكد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «**كِتَابُ اللهِ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ**»(١).

فحين يقبل المرء على القرآن إقبالًا صحيحًا، ويستبد به الشغف واللهفة، ويتجرد في فهم آياته، ويسمح لها أن تُقوِّم تصوراته المختلطة والخاطئة حينها يزيد القرآن الإيمان ويُنقص الهوى في قلبه، وهذا من شأنه أن يُنهي جزءًا كبيرًا في موضوع الخلاف بأمر الله.

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن جرير الطبري في التفسير (٧/ ٧٢ برقم: ٧٥٧٢)، وأصل المعنى «كتاب الله هو حبل الله» رواه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٤/ ١٨٧٤ برقم: ٢٤٠٨). وغيره بألفاظ مختلفة.
وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: «**أَبْشِرُوا أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ وَطَرَفُهُ بَأَيْدِيكُمْ فَتَمَسّكُوا بِهِ فَإِنّكُمْ لَنْ تَضلُّوا وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا**». [أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥برقم: ٣٠٠٠٦)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٨٨برقم: ٤٩١)، وابن حبان (١/ ٣٢٩ برقم: ١٢٢). وقال الهيثمي (١/ ١٦٩): رجاله رجال الصحيح].

.. والقرآن كذلك يوضح ويبين الكثير من الأمور المختلف فيها، ويرسم في الأذهان خريطة الإسلام بنسبها الصحيحة دون تفريط ولا إفراط، فيُعطي كل ذي حق حقه.

.. والقرآن يبني العلاقة الصحيحة مع الله، ومع النفس، ومع الدنيا، ومع الآخرة، ومع الرسل، ومع الملائكة، ومع الصالحين، ومع عالم الغيب وعالم الشهادة، و...

وحين تنبني العلاقة الصحيحة بهذه الأمور يزول الكثير من أسباب الخلاف بين أبناء الأمة.

فعلى سبيل المثال: عندما يقرأ المرء قوله تعالى مخاطبًا رسوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ويجد أن المعنى الذي تحمله الآية يتكرر في عشرات الآيات؛ ومن ثمَّ يتحول ذلك إلى يقين في عقله، وإيمان راسخ في قلبه، فإن هذا سيدفعه إلى أن ينظر إلى البشر جميعًا بنفس منظار الآية... ليس لهم من الأمر شيء مهما كان صلاحهم.

... هذا المعنى لو استقر في عقولنا وقلوبنا فإنه سيؤدي إلى حسم الكثير والكثير من نقاط الخلاف، وأسباب التشرذم والفرقة الناتجة عن تقديس البشر.

سابعًا: القرآن نبع متجدد لا تمله

القرآن لا يَبلى من كثرة الرد، ففيه دائمًا الجديد لقرائه، ولو نهل البشر جميعًا من نبعه لما انقطع أبدًا عن التدفق، ولما شعر أحد بالملل أو التكرار أو عدم وجود جديد، بل الأعجب أننا سنفاجأ يوم القيامة بأننا ما أخذنا إلا رشفات وقطرات يسيره من نهر القرآن العظيم الفياض بالخير، وصدق من قال بأن القرآن لا يزال بكرًا.

وفي هذا المعنى يقول د. محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«تقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف، والملاسة، والإحكام، والخلو من كل غريب عن الغرض، **ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كدّ خاطر ولا استعادة حديث، كأنك لا تسمع كلامًا ولغات بل ترى صورًا وحقائق ماثلة.**

وهكذا يخيل لك أنك قد أحطت به خُبرًا ووقفت على معناه محدودًا.

هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد، غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة. وكذلك حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهًا عدة، كلها صحيح أو محتمل للصحة، كأنما هي فصٌّ من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعًا، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع.

ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك لرأى منها أكثر مما رأيت. وهكذا تجد كتابًا مفتوحًا مع الزمان يأخذ كل منه ما يُيسَّر له، بل ترى محيطًا مترامي الأطراف لا تَحدُّه عقول الأفراد ولا الأجيال».

ثم يضرب الشيخ دراز مثلًا فيقول:

اقرأ قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢ ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وانظر هل ترى كلامًا أبين من هذا في عقول الناس. ثم انظر كم في هذه الكلمة من مرونة، فإنك لو قلت في معناها:

إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله: لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ويقدره على هؤلاء، أصبت.

ولو قلت: إنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاد، أصبت.

ولو قلت: إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب، أصبت.

ولو قلت: أنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له على عمله، أصبت.

ولو قلت: يرزقه رزقًا كثيرًا لا يدخل تحت حصر وحساب، أصبت[١].

تقرأ فتؤجر

وفوق هذا كله فالقرآن عبادة يُتعبد من خلالها ويُتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بها؛ مما يدفع بالمسلم إليه ويحببه دومًا في التعامل معه كباب للأجر والثواب، وقربة إلى الله، وهذا لا يتوفر في أي كتاب آخر.

تأمل هذا الحديث لرسول الله ﷺ وما يمكن أن يثيره من رغبة لقراءة القرآن:

«**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ؟** قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: **فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ**»[٢].

.. نعم، علينا حين نقبل على القرآن استحضار الغاية من نزوله: ﴿ **هُدًى لِّلنَّاسِ** ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والتعامل معه على كونه الوسيلة المتفردة لتحصيل الإيمان والعلم والشفاء والتغيير الكامل والتام، ومع هذا كله فهو أيضًا وسيلة لتحصيل الأجر والثواب من الله جل شأنه.

---

(١) النبأ العظيم (١٤٦، ١٤٧).

(٢) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها -باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه- (١/ ٥٥٢ برقم: ٨٠٢).

ثامنًا: القرآن وسيلة ودواء مُجرب

ومما يؤكد أن القرآن المجيد هو البداية الصحيحة لنهضة الأمة، ما حدث مع الجيل الأول حين تلقوا القرآن على حقيقته فصاروا من خلاله -بإذن الله- خير أمة، وتبدل ترتيبهم بين الأمم من الذيل إلى المقدمة في سنوات معدودة.

لقد كان حال أمة العرب قبل الإسلام أسوأ بكثير من حالنا الآن، ومع ذلك فقد غيَّرهم القرآن وأثَّر فيهم، وأصلح حالهم، وأعاد صياغتهم من جديد؛ مما يبعث فينا الأمل بأن القرآن يصلح معنا ويقدر أن يفعل بنا مثل ما فعل بهم -بإذن الله.

ويكفيك في هذا أن حزنهم الشديد على وفاة رسول الله محمد ﷺ لم يكن فقط على فراقه، بل كان على انقطاع نزول القرآن، وانفصال الأرض عن السماء، كيف لا وقد ذاقوا حلاوة الإيمان من خلاله، وأدركوا قيمته وقدرته التغييرية الفذة، وأنه كان يرفعهم ويرقيهم في مدارج الإيمان، ويزيدهم معرفة بالله، وارتباطًا به،...

تأمل معي هذه الواقعة التي تؤكد هذا المعنى

«قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بعد وفاة رسول الله ﷺ، لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: انطلق بنا إلى أم أيمن، نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها... فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء!

فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها»[1].

(١) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (٤/ ١٩٠٧برقم: ٢٤٥٤).

فالنص -كما يقول د. فريد الأنصاري- دال بوضوح على أن ارتباط الصحابة، إنما كان بالقرآن، الذي هو ربط مباشر بالله، ولم يكن بشخص الرسول ﷺ إلا من حيث هو مبلغ عن الله[١].

«ومن ثمّ صح أن نقول: إن القرآن الكريم كان هو الباب المفتوح والمباشر الذي ولجه الصحابة الكرام إلى ملكوت الله، حيث صُنعوا على عين الله... إنه السبب الوثيق الذي تعلقت به قلوبهم، فأوصلهم إلى مقام التوحيد الفعلي والحقيقي»[٢].

«ولقد دأب رسول الله ﷺ على ترسيخ الارتباط بالقرآن، باعتباره المصدر الأساسي للتربية، والمتتبع لأحاديث الرسول ﷺ يجدها شارحة للقرآن مبينة لما أُجمل فيه، مؤكدة لمعانيه، وهذا ما دفع الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأن يقول بأن السُّنة هي: فهم النبي للقرآن، أو نضح فهمه للقرآن»[٣].

أوَ لَا يكفينا القرآن؟!

جاء بعض المسلمين إلى رسول الله ﷺ بكتب قد كتبوها، فيها بعض ما سمعوه من اليهود. فقال رسول الله ﷺ: «**كَفَى بِقَوْمٍ ضَلَالًا أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ نَبِيٌّ غَيْرُ نَبِيِّهِمْ، أَوْ كِتَابٌ غَيْرُ كِتَابِهِمْ**» فنزلت: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ**﴾[٤] [العنكبوت: ٥١].

(١) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (ص: ٤٥).
(٢) المصدر السابق (ص: ٤٦).
(٣) كيف نتعامل مع القرآن لمحمد الغزالي (ص: ٤٥).
(٤) أخرجه الدارمي (١/ ٤٢٥ برقم: ٤٩٥)، باب من لم ير كتابة الحديث، وأبو داود في المراسيل (ص: ٢٣٦ برقم: ٤٥٤).

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي عن أبي قلابة أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مر برجل يقرأ كتابًا، فاستمعه ساعة، فاستحسنه، فقال للرجل: اكتب لي من هذا الكتاب، فقال: نعم، فاشترى أديمًا فهيأه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره وبطنه، ثم أتى النبي ﷺ فجعل يقرؤه عليه، وجعل وجه رسول الله ﷺ يتلون، فضرب رجل من الأنصار بيده الكتاب، قال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أما ترى وجه رسول الله ﷺ منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب، فقال النبي ﷺ عند ذلك: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ فَاتِحًا وَخَاتَمًا، وَأُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَفَوَاتِحَهُ، وَاخْتُصِرَ لِي الْحَدِيثُ اخْتِصَارًا، فَلا يَهْلِكَنَّكُمُ الْمُتَهَوِّكُونَ**»(١).

وأخرج ابن الضريس عن الحسن أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله إن أهل الكتاب يحدثونا بأحاديث قد أخذت بقلوبنا، وقد هممنا أن نكتبها فقال: «**يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَكِنِّي أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَاخْتُصِرَ لِيَ الْحَدِيثُ اخْتِصَارًا**»(٢).

من هذه النصوص وغيرها يتبين لنا أن رسول الله ﷺ لم يكن يعتمد شيئًا في تربية الصحابة غير القرآن، وسنته المطهرة، باعتبارها شارحة له.

ومن هنا توثق ارتباط الناس بالقرآن في العهد النبوي، ارتباطًا عمَّق صلة القلوب بربها، إلى درجة أن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا يتتبعون الوحي،

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٧١) من طريق عبد الرزاق في المصنف باب مسألة أهل الكتاب (٦/ ١١٢) عن معمر في الجامع (١١/ ١١١) عن أيوب عن أبي قلابة عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والمتهوكون أي المتحيرون.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند بلفظ قريب منه (٢٣/ ٣٤٩ برقم: ١٥١٥٦) وابن الضريس في «فضائل القرآن» (١/ ٥٤ برقم: ٨٩) بلفظه، وأبو عبيد في «غريب الحديث» (٣/ ٢٩).

تتبع الملهوف، الحريص على الترقي في مدارج المعرفة بالله والسلوك إليه سبحانه[١].

تأمل -أخي القارئ- هذا الخبر الذي يبين كيف كان حال الصحابة مع القرآن، وكيف كانوا يستقبلون توجيهاته وإشاراته:

نزل رجل من العرب على عامر بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاء الرجل فقال: إني استقطعت رسول الله ﷺ واديًا ما في العرب أفضل منه، ولقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك. فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١ ﴾[٢] [الأنبياء: ١].

بل انظر إلى مدى تقدير اليهود للقرآن، بل لآية واحدة فيه وهم الذين ينكرونه ويكذبونه ويكذبون رسول الله ﷺ، فقالوا حسدًا من عند أنفسهم: «نزلت عليكم آية لو نزلت علينا معشر يهود لجعلنا يوم نزولها عيدًا»، يقصدون قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، لما فيها من فضل وتكريم، فهل شعرنا نحن بهذا التكريم من الله، وقدرناه حق قدره، وقمنا بحقه؟

الجيل الفريد

كان من نتاج ارتباط الصحابة الوثيق بالقرآن، والانصياع التام له، والسماح لمعجزته أن تعمل داخلهم، أن تكونت أمة جديدة وجيلًا فريدًا لم تر البشرية مثله حتى الآن.

(١) التوحيد والوساطة (ص: ٤٢).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٧٩).

يقــول محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الأمة التي نزل عليها القرآن فأعاد صياغتها هي المعجزة التي تشــهد للنبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنه أحسن بناء الأجيال، وأحسن تربية الأمم، وأحســن صياغة جيل قدم الحضارة القرآنية للخلق.. فنحن نرى أن العرب عندما قرؤوا القرآن، تحولوا إلى أمة تعرف الشــورى وتكره الاســتبداد، إلى أمة يسودها العدل الاجتماعــي ولا يُعرف فيها نظام الطبقات، إلى أمة تكره التفرقة العنصرية، وتكره أخلاق الكبرياء والترفع على الشعوب.

ووجدنا بدويًّا كربعي بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول لقائد الفرس: جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

إنهم فتح جديد للعالم وحضارة جديدة أنعشــت الإنســانية ورفعت مكانتها؛ لأن الأمة الإسلامية كانت في مســتوى القرآن الكريم، والحضارة الإسلامية إنما جاءت ثمرة لبناء القرآن للإنسان [1].

من ثمارهم تعرفونهم

لقد أدركت البشرية، وسجَّل التاريخ حجم التغيير الذي حدث للصحابة، وذلك من خلال رصد أعمالهم التي لا يمكن أن تحدث من أُناس عاديين، فهي أعمال فوق طاقة البشر بفهمنا القاصر، ومما يدعو للدهشة أن هذه الأعمال لم تكن قاصرة على عدد محدود من الصحابة، بل كانت سمتًا عامًّا لهم جميعًا: رجالًا ونساءً، شبابًا وشيبًا.

فهذه امرأة تدفع إلى ابنها يوم أُحد السيف، فلم يُطق حمله، فماذا فعلت؟!

هل فرحت وحمدت الله على السلامة وعادت به إلى دارها؟!

(١) كيف نتعامل مع القرآن (ص: ٣٠).

لا، لم تفعل ذلك، بل أحضرت نسعة (سير مضفور) فشدت به السيف على ساعد ابنها، ثم أتت به النبي ﷺ فقالت: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا ابْنِي يُقَاتِلُ عَنْكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**أَيْ بُنَيَّ، احْمِلْ هَهُنَا، أَيْ بُنَيَّ، احْمِلْ هَهُنَا**». فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ، فَصُرِعَ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**أَيْ بُنَيَّ، لَعَلَّك جَزِعْتَ؟**» قَالَ: لَا يَا رَسُولَ الله[١].

وعندما أراد النبي ﷺ الخروج إلى تبوك دعا الناس للإنفاق وتجهيز الجيش، فتسابق الصحابة إلى إخراج الكثير والكثير من الأموال وكل ما يحتاجه الجيش، فوجد رجلًا من الأنصار اسمه الحجاب ويكنى أبو عقيل أنه لا يملك شيئًا ينفقه، فماذا يفعل وهو يريد أن يساهم في هذا الجهاد، ويُري الله من نفسه خيرًا؟

فكر وفكر فهداه الله إلى شيء عجيب: لقد ذهب وأجَّر نفسه عند البعض، وكان العمل هو جر الجرير (الحبل) على ظهره، أما الأُجرة فكانت صاعين من تمر، فترك صاعًا لأهله، وذهب بالآخر لرسول الله ﷺ يقول له: يا رسول الله ما لي من مال غير أني أجرت نفسي من بني فلان، أجُرُ الجرير في عنقي على صاعين من تمر، فتركت صاعًا لعيالي وجئت بصاع أقربه إلى الله تعالى[٢].

فكان هو وأمثاله ممن قال الله فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧٩].

ولما نزلت: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال أبو الدحداح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، إن الله يريد منا القرض؟ قال: «**نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ**»

(١) أخرجه ابن أبي شيبة كتاب المغازي باب ٢٦ (٢٠/ ٣٥٩ برقم: ٣٧٩٣٧) بتحقيق عوامة.

(٢) الطبراني في الكبير (٤/ ٥٤ برقم: ٣٥٩٨)، الطبري في التفسير (١٠/ ١٩٦) وابن كثير في التفسير (٤/ ١٢٧) وانظر أسد الغابة (٦/ ٢٢٠).

قال: أرني يدك، فناوله يده، قال: قد أقرضت ربي حائطي (بستان) -وحائطه فيه ستمائة نخلة- فجاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعيالها، فنادى: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي» [١].

وفي رواية: يا أم الدحداح، اخرجي من الحائط فإني قد بعته بنخلة في الجنة؟

فماذا قالت زوجته؟ هل لامته وعاتبته على فعله؟ هل قالت له: وأين سنذهب، لقد أفقرتنا وأفقرت عيالنا؟!

لا، لم تقل له ذلك، بل قالت: ربح البيع.

وإن تعجب فاعجب من هذا الموقف

أخرج ابن سعد في طبقاته عن جعفر بن عبد الله أنه لما كان يوم اليمامة واصطف الناس للقتال كان أول الناس جُرح أبو عقيل الأنيفي، رُمي بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده فَشَطب في غير مقتل، فأخرج السهم ووهن له شقَّه الأيسر لما كان فيه، وهذا أول النهار، وجُرَّ إلى الرَّحل، فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجازوا رحالهم وأبو عقيل واهن من جُرحه سمع معن بن عدي يصيح بالأنصار: الله الله والكَرَّة على عدوكم.

قال عبد الله بن عمر: فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد يا أبا عقيل؟ ما فيك قتال، قال: قد نوَّه المنادي باسمي، قال ابن عمر: فقلت: إنما يقول يا للأنصار لا يعني الجرحى، قال أبو عقيل: أنا رجل من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبوًا.

---

(١) البزار (١/ ٤٤٧ برقم: ٩٤٤) في كشف الأستار، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٠١ برقم: ٨٦٤) وأبو يعلى في مسنده (٨/ ٤٠٤ برقم: ٤٩٨٦).

قال ابن عمر: فتحزَّم أبو عقيل وأخذ السيف بيده اليمنى مجرَّدًا ثم جعل ينادي: يـا للأنصار كرَّة كيوم حُنيْن. فاجتمعوا -رحمهم الله جميعًا- يقدمون المسـلمين دُرْبة من دون عدوهم، حتى أقحموا عدوهم الحديقة فاختلطوا واختلفت السيوف بيننا وبينهم.

قـال ابن عمر: فنظرت إلى أبي عقيل وقد قُطعت يده المجروحة من المنكب فوقعت الأرض، وبه من الجراح أربعة عشـر جُرحًـا كلها قد خلصت إلى مقتل، وقتل عدو الله مسيلمة.

قال ابن عمر: فوقعت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق، فقلت: أبا عقيل، فقال لبيك بلسـان مُلْتَاث: لمن الدَّبْرة؟ قال: قلت أبشـر، ورفعت صوتي، قد قُتل عدو الله، فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله، ومات يرحمه الله[١].

فماذا تقول بعد ذلك؟!

تاسعًا: القرآن هو المنقذ -بإذن الله- والمُخرج من الفتن الذي دلنا عليه رسول الله ﷺ

أخبرنا رسـول الله ﷺ بأنه سـتكون هناك فترات انكسار وهزيمة وفتن ستمر بها الأمة الإسلامية، وأن الأمم الأخرى ستتكالب عليها وتهزمها، وأخبرنا ﷺ بأن السـبب وراء ذلك هو حب الدنيا وكراهية الموت، أو بمعنى آخر ضعف الإيمان وسطوة الهوى على القلب.

عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**يُوشِـكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**»، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُـولَ اللهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟

(١) طبقات ابن سعد (٣ / ٣٦١، ٣٦٢).

قَـالَ: «**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّـيْلِ، تُنْزَعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُـمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ**»، قَالَ: قُلْنَـا: وَمَا الْوَهْنُ؟ **قَالَ**: «**حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»(١).

ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ بأن المخرج من هذه الفتن وهذا الوهن هو القرآن؛ لأنه سيعالج السبب الذي من أجله ضعفت الأمة وهانت على الله.

عـن الحارث الأعور قـال: مررت في المسـجد فإذا النـاس يخوضون في الأحاديـث، فدخلت عَلَى عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقلت: يا أمير المؤمنين ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث؟ قال: أوَ قد فعلوها؟ قلت: نعم.

قال: أما إني سمعت رسـول الله ﷺ يقول: «**أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**». فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟

قـال: «**كِتَـابُ اللهِ فِيـهِ نَبَـأُ مَـا قَبْلَكُـمْ، وَخَبَـرُ مَـا بَعْدَكُـمْ، وَحُكْـمُ مَـا بَيْنَكُـمْ، هُـوَ الْفَصْـلُ لَيْـسَ بِالْهَـزْلِ، مَـنْ تَرَكَـهُ مِـنْ جَبَّـارٍ قَصَمَـهُ اللهُ، وَمَـنِ ابْتَغَـى الْهُـدَى فِـي غَيْـرِهِ أَضَلَّـهُ اللهُ، وَهُـوَ حَبْـلُ اللهِ الْمَتِيـنُ، وَهُـوَ الذِّكْـرُ الْحَكِيـمُ، وَهُـوَ الصِّرَاطُ الْمُسْـتَقِيمُ، هُـوَ الَّـذِي لَا تَزِيـغُ بِـهِ الْأَهْـوَاءُ وَلَا تَلْتَبِـسُ بِـهِ الْأَلْسِـنَةُ، وَلَا يَشْـبَعُ مِنْـهُ الْعُلَمَـاءُ وَلَا يَخْلَـقُ عَلَـى كَثْـرَةِ الـرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِـي عَجَائِبُـهُ، هُـوَ الَّـذِي لَـمْ تَنْتَـهِ الْجِـنُّ إِذْ سَـمِعَتْهُ حَتَّـى قَالُـوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾** [الجـن: ١،٢] **مَـنْ قَـالَ بِـهِ صَـدَقَ، وَمَـنْ عَمِـلَ بِـهِ أُجِـرَ، وَمَـنْ حَكَـمَ بِـهِ عَـدَلَ،**

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٧/ ٨٢ برقم: ٢٢٣٩٧)، وأبو داود كتاب الملاحم باب تداعي الأمم على الإسلام (٥/ ٤٧ برقم: ٤٢٩٧).

وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[١].

ولقد أكد رسول الله ﷺ هذا المعنى في حديثه لحذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أخبره بالاختلاف والفرقة بعده، فقد قال حذيفة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عندما سمع ذلك: يا رسول الله فما تأمرني إن أدركت ذلك؟ قال: «**تَعَلَّم كِتَابَ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ، **وَاعْمَل بِه فَهُو المُخْرِج مِن ذَلك**»، قال حذيفة: فأعدت عليه ثلاثًا، فقال ﷺ ثلاثًا: «**تَعَلَّم كَلَامَ اللهِ وَاعْمَل بِه فَهُو النَّجَاة**»[٢].

• • •

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥برقم: ٣٠٠٠٧)، والدارمي (٢/ ٥٢٦ برقم: ٣٣٣١)، والترمذي في ثواب القرآن باب فضل القرآن (٥/ ١٧٢برقم: ٢٩٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٢٥ برقم: ١٩٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها (برقم: ٤٢٤٦) والنسائي، والبيهقي في الشعب، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٣٢).

الفصل الخامس

كيف يُمكن للقرآن أن ينهض بالأمة؟

- هجر القرآن.
- الكتاب الوحيد.
- الحاضر الغائب.
- إعادة الثقة في القرآن.
- التأثر بالمعنى هو بداية التمهيد لطريق التدبر.
- الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح.

كيف يُمكن للقرآن أن ينهض بالأمة؟

تأكد لدينا أن الأمة بحاجة إلى روح جديدة تُبث في جسدها فتنهض بها وتدفعها للعمل والسعي في مرضاة الله، وتأكد كذلك أن المصدر الجامع المتفرد لهذه الروح هو القرآن بما يملكه من مواصفات وخصائص لا تتوفر في غيره.

هجر القرآن

ومع كون القرآن المجيد قادرًا بإذن الله على إصلاحنا، وسد الفجوة القائمة بين العلم والعمل، وبث الروح في جسد الأمة إلا أننا لا نرى هذا الأثر في واقعنا، رغم ما نراه من اهتمام كبير به من خلال المطابع الكثيرة التي تقوم بطباعته، والإذاعات التي تبثه ليل نهار، وحلقات التحفيظ والتعليم المنتشرة في المساجد والمدارس، إلا أن هذا كله لم يصاحبه تعامل مع القرآن على حقيقته، ولم يصاحبه استشعار لخطورة الدور الذي يستطيع أن يقوم به في قيادة الأمة وتوجيه الحياة، فلقد هُجرت معجزته، وابتعد الناس عن دائرة تأثيره.

وهذا بلا شك لم يكن وليد اليوم، بل هو حصاد موروثات قديمة من التعامل الخاطئ مع القرآن امتدت لعدة قرون سابقة، ابتعد فيها المسلمون شيئًا فشيئًا عنه وعن دوره في التوجيه والتأثير وقيادة الحياة، فحُصر دوره في كونه مصدرًا للتبرك، والأجر والثواب فقط، وأطلق مصطلح «أهل القرآن» على حفاظ حروفه، وأصبح المقصد من تعلم القرآن وتعليمه هو تعلم أحكام تلاوته ومخارج حروفه وقراءاته والاقتصار على ذلك.

الصورة الموروثة عن القرآن

إن أكبر عقبة تواجه الأمة نحو الانتفاع بالقرآن هي ضعف الثقة والإيمان بالقرآن كمصدر متفرد للإيمان والعلم والشفاء والتغيير التام والكامل، وساعد على ذلك تلك الصورة الموروثة عنه، فكما يقول عمر عبيد حسنة في مقدمة كتاب كيف نتعامل مع القرآن:

إن الصورة التي طُبعت في أذهاننا في مراحل الطفولة للقرآن أنه: لا يُستدعى للحضور إلا في حالات الاحتضار والنزع والوفاة، أو عند زيارة المقابر، أو نلجأ لقراءته عند أصحاب الأمراض المستعصية، وهي قراءات لا تتجاوز الشفاه.

فإذا انتقلنا إلى مراكز ودروس تعليم القرآن الكريم، رأينا أن الطريقة التي يُعلَّم بها يصعب معها استحضار واصطحاب التدبر والتذكر والنظر، إن لم يكن مستحيلًا.

فالجهد كله ينصب إلى ضوابط الشكل من أحكام التجويد ومخارج الحروف، وكأننا نعيش المنهج التربوي والتعليمي المعكوس! فالإنسان في الدنيا كلها يقرأ ليتعلم، أما نحن فنتعلم لنقرأ! لأن الهم كله ينصرف إلى حسن الأداء، وقد لا يجد الإنسان أثناء القراءة فرصة للانصراف إلى التدبر والتأمل، وغاية جهده إتقان الشكل، وقد لا يعيب الناس عليه عدم إدراك المعنى قدر عيبهم عدم إتقان اللفظ.

ونحن هنا لا نهوّن من أهمية ضبط الشكل، وحُسن الإخراج، وسلامة المشافهة، ولكننا ندعو إلى إعادة النظر بالطريقة حتى نصل إلى مرحلة التأمل والتفكر والتدبر التي تترافق مع القراءة [١].

(١) كيف نتعامل مع القرآن لمحمد الغزالي (ص: ١٧).

الكتاب الوحيد

مــن الأمور البديهية التي لا يختلف عليها اثنان أن الدافع للقراءة هو المعرفة، فالذي يتناول بيده كتابًا أو جريدة ليقرأ فيها، فإن الذي يدفعه لذلك هو المعرفة... معرفة ما وراء الخبر وما يحتويه من معارف ومعلومات.

وفــي المقابل فلا يمكن لعاقل أن يقرأ -أي شــيء- بلســانه أو بعينه دون أن يُعمل عقله فيما يقرؤه، أو يفكر في معانيه!!

تخيل لو أن شخصًا يفعل ذلك، ماذا تقول عنه؟ وكيف يكون تقييمك له؟!

ألا توافقني في أنك ستعتبره إنسانًا غير سوي.

هــذا المفهــوم البدهي للقــراءة قد تعارف عليــه الناس في جميــع الأزمان والأمصار على اختلاف مذاهبهم وأديانهم، فالذي يقرأ إنما يقرأ لأنه يريد أن يتعلم شــيئًا من خلال هذه القراءة، والذي يطلب من غيره قراءة شيء ما، فإنه يقينًا يريد من وراء هذا المطلب أن يفهم المقصود من الكلام المقروء.

هــذه القاعدة التي لا تحتاج إلى برهــان تنطبق على جميع الكتب والصحف والمجلات الموجودة على ظهر الأرض الآن، فقط كتاب واحد لا يتم التعامل معه بنفس الكيفية.. كتاب واحد يتعامل معه عدد كبير من الناس بطريقة عجيبة... إنهم يقرؤونــه لمجرد القراءة!! ودون إعمال عقولهم لفهم معانيه ولو بصورة إجمالية، بل ويتنافســون علــى ذلك ولا يجدون أي غضاضة في نفوســهم من قيامهم بهذا الفعل، ولا يجدون حرجًا في إظهار ذلك أيضًا.

أتدري -أخي القارئ- ما هو هذا الكتاب؟!

إنه -للأسف الشديد- أعظم كتاب على ظهر الأرض، الكتاب الوحيد الذي ليس فيه أي خطأ أو ريب أو باطل.. إنه القرآن العظيم.

نعم -أخي القارئ- القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يقرؤه غالبية المسلمين بألفاظه فقط دون أن يفكروا في معاني تلك الألفاظ، ودون أن يُعملوا عقولهم في فهمها، والعجيب أنهم بذلك يحسبون أنهم يُحسنون صنعًا، بل إن بعضهم يدافع عن ذلك ولا يرى فيه بأسًا.

لقد أنزل الله القرآن ليقرأه الناس ويتفكروا في معانيه، ويفهموا المراد منه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]، ويجتهدوا في التأثر بهذا الفهم حتى يرسخ مدلوله في القلب، وهذا هو معنى تدبر القرآن كما يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولكن إذا وقع في القلب فرَسخ فيه نفع»[(١)].

يقول تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

هذا التعامل الصحيح مع القرآن يدفع صاحبه للعمل بما فهمه وتأثر به ورسخ في قلبه...

فهل فعل المسلمون ما أمرهم الله به؟!

للأسف لا، بل فعلوا شيئًا عجيبًا لم تفعله أمة من قبل! جعلوا عملهم مع

(١) رواه مسلم (١/ ٥٦٣ برقم: ٨٢٢).

القرآن هو القراءة، ولم يجعلوا القراءة وسيلة لفهم المراد من الآيات والعمل بها، وفي هذا المعنى يقول: الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لقد أنزل الله القرآن ليُعمل به، فاتَّخذوا تلاوته عملًا»[١]، وقال الفضيل بن عياض: إنما نزل القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملًا[٢].

ولقد أدى انشغال المسلمين بألفاظ القرآن عن معانيه إلى حرمان الأمة من مصدر عزها ومجدها، وكيف لا وهم قد أطفأوا بهذا الفعل مصباحهم الذي ينير لهم الطريق فتخبطوا في الظلمات، وسقطوا في الهاوية، وأصبحوا في ذيل الأمم، لا قيمة لهم، ولا اعتبار لوجودهم.

أمة صارت في مؤخرة الأمم، بينما لديها ما يجعلها في الصدارة والرفعة، بين يديها مفتاح سعادتها، إلا أنها تُعرض عنه، وتتعامل معه تعاملًا شاذًّا لم يحدث مع أي كتاب من صنع البشر! لم يحدث مع أي صحيفة من الصحف، أو حتى مع قصاصة ورقية شاردة.

أين شرفنا؟

القرآن هو شرفنا ومصدر عزنا... هذا هو دوره، وهذا هو قدره، ألم يقل سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية: فيه شرفكم [٣].

فماذا فعلت الأمة بشرفها؟

---

(١) ذكره السمعاني في تفسيره (٤/ ١١٩)، وابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص: ١٠٩).
(٢) اقتضاء العلم العمل (١/ ٧٥ برقم:١٦٦).
(٣) الدر المنثور (٥/ ٦١٧).

للأسف أضاعته وهجرته وفي نفس الوقت تدّعي أنها تهتم به اهتمامًا بالغًا، ولعل أصدق ما ينطبق على حالنا مع القرآن أننا اتخذناه مهجورًا.

فإن قلت: كيف يكون اتخاذ شيء ما بهجره؟ فكلمة «اتخذ» توحي بالإيجابية، و«الهجر» كلمة توحي بالسلبية؟

لقد اجتمع الضدان بالفعل مع القرآن، فمن الناحية الشكلية اهتم المسلمون بالقرآن اهتمامًا كبيرًا؛ فالإذاعات تبث آياته ليل نهار، والمصاحف في كل بيت، وآيات القرآن تزين الجدران، والمدارس والكتاتيب والقنوات والتطبيقات التي تهتم بكيفية قراءة القرآن وحفظه تملأ جنبات العالم الإسلامي.

أما من الناحية الموضوعية، فلقد هجر المسلمون القرآن هجرًا كاملًا -إلا من رحم الله... هجرًا يشمل رسالته الهادية، ومعجزته التغييرية، وانصب اهتمامهم على شكله ولفظه فقط، والدليل على ذلك الهجر هو الواقع، فكلما تذكرنا حجم التغيير الذي حدث للصحابة والذي ظهر في أعمالهم وآثارهم «تعرفهم بسيماهم»، ثم قارنَّا حالنا بحالهم رأينا أن واقعنا وأعمالنا وما فيها من سلبيات كثيرة تكشف لنا أن القرآن لم يفعل معنا كما فعل معهم!

فهل المشكلة في القرآن؟

هل توقفت معجزته عن العمل بعد الجيل الأول؟!

حاشاه أن يكون كذلك والله عَزَّوَجَلَّ قد تكفل بحفظه من كل جوانبه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

المشكلة -إذن- فينا نحن، عندما اتخذناه ترانيم، وبابًا للأجر والثواب فقط، وتعاملنا معه بحناجرنا دون عقولنا وقلوبنا. أحسنا التعامل مع لفظه وهجرنا معجزته، فاجتمع فينا الضدان: الاتخاذ والهجر، وهذا ما ينطبق مع شكوى الرسول

ﷺ لربه: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

هـذا الوضع الشـاذ الذي أحدثته الأمة مـع كتابها ومصدر عزهـا، وتوارثته أجيالها المتتابعة وكأنهم تواصوا به! هذا الوضع يحتاج إلى وقفة حاسمة ومراجعة شديدة مع أنفسنا لنغير الطريقة التي نتعامل بها مع القرآن ليعود إلينا شرفنا وعزنا.

يقول محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا بد من جعل القرآن يتحول في حياتنا إلى طاقة متحركـة، أما أن يوضع في المتاحف أو المكاتـب للبركة، أو أن نفتح المصحف ونقرأ آية أو آيات وينتهي الأمر، هذا لا يجوز»[1].

بل من العجيب أن تعلم أن لفظ «يتلو القرآن» يتضمن السير وراءه واتباعه، وليس قراءته فقط، ففي اللغة تقول: جاء فلان يتلوه فلان، أي جاء بعده وسـار على أثره.

الحاضر الغائب

إن القرآن أصبح اليوم بين المسـلمين حاضرًا وغائبًـا، موجودًا ومفقودًا في الوقت ذاته. فهو حاضر وموجود بلفظه ومصاحفه وقرائه وحفاظه، غائب ومفقود بحرماننا من روحه ومعجزته وقيادته للحياة.

فـلا هو حاضر معنا حضورًا حقيقيًّا، ولا هـو غائب عنا غيابًا تامًّا، وهذه أهم عقبـة تواجه الأمة وتمنعها من الانتفاع به انتفاعًا حقيقيًّا؛ لأن الكثيرين لا يرون أن هناك مشكلة مع القرآن وذلك بسبب حضوره بيننا -كما أسلفنا.

يقـول البنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لـم ينزل القرآن من علياء السـماء على قلب محمد ﷺ ليكـون تميمة يُحتجب بها، أو أورادًا تُقرأ علـى المقابر وفي المآتم أو ليُكتب في

(١) كيف نتعامل مع القرآن (ص: ٥٩).

الســطور، ويُحفظ في الصدور، أو ليحمل أوراقًا ويُهمل أخلاقًا، أو ليحفظ كلامًا ويُهجر أحكامًا...

وإنما نزل ليهدي البشــرية إلى الســعادة والخير: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦ ﴾[1] [المائدة: ١٥، ١٦]».

ويقول: «عرف سلفنا الصالح رضوان الله عليهم فضل القرآن وتلاوته، فجعلوه مصدر تشــريعهم، ودســتور أحكامهم، وربيع قلوبهم، وورد عبادتهم، وفتحوا له قلوبهم وتدبروه بأفئدتهم، وتشربت معانيه السامية أرواحهم، فأثابهم الله في الدنيا ســيادة العالم، ولهم في الآخرة عظيم الدرجات، وأهملنــا القرآن فوصلنا إلى ما وصلنا إليه من ضعف في الدنيا ورقة في الدين»[2].

إعادة الثقة في القرآن

إن كان الأمــر كذلك فلكي يتم إعادة الثقة مرة أخرى في القرآن من حيث هو المصدر الجامع للتغيير والشــفاء وتوليد الطاقة الروحية، فإن هذا بلا شك يحتاج إلــى جهد ضخم وإلى اعتناق وتبنــي المصلحين في الأمة لهذا المشــروع، فمع سهولة الحل وبساطته وتيسُّــره للجميع؛ إلا أن الموروثات الخاطئة التي توارثتها الأجيال عن القرآن تجعل مــن الصعب على المرء أن يتجاوزها، وأن تتغير نظرته للقرآن وطريقــة تعامله معه، بل إنه من المتوقع أن تجد كثيرًا من المســلمين غير

(١) نظرات في كتاب الله (ص: ٣٤).
(٢) المصدر السابق (ص: ٣٧).

مقتنع أو متحمس لمبدأ أن القرآن هو الحل، وبأن مجد الإسلام سيعود من جديد بعــودة القرآن من غربته، فهم يظنون أن اهتمامهم بحفظه، وكثرة قراءاته، وإنشــاء المدارس لتحفيظه، والتعمق في قراءة تفسيره، وافتتاح الحفلات به، هو أقصى ما ينبغي عليهم فعله معه.

من هنا اشتدت الحاجة لبذل الجهد الضخم لإزالة تلك الموروثات القاصرة، ولتغيير تلك الأســاليب السائدة لنشــره وخدمته، ولبناء الثقة عند الناس في قيمته الحقيقية.

شرط لا بد منه

إن تبني مشــروع العــودة إلى القرآن والانتفاع بقوة تأثيــره الفريدة، والتعامل معه على أنه بداية حقيقية لمشــروع النهضــة يحتاج من صاحبه أول ما يحتاج إلى ضــرورة الانتفاع والتأثر بــه أولًا، وتذوق حلاوة الإيمان مــن خلاله، وأن يصبح بالفعــل مصدرًا متفردًا للقــوة الروحية والدافع الذاتي والإيمان والشــفاء والعلم النافع لديه.

...لا بد لكل من يريد أن يدل الناس على حقيقة القرآن أن يبدأ بنفســه أولًا، وأن يلمــس تأثير المعجــزة القرآنية وهي تعمل داخله، وأن يشــرق على قلبه نور القرآن وتظهر علاماته عليه، والتي أخبر عنها رســول الله ﷺ عندما سأله أصحابه عــن علامات دخول النور القلب وانشــراحه له فقــال: «**الْإِنَابَةُ إِلَــى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ**»[1].

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (برقم: ٣١٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٧٦ برقم: ٣٤٣١٤)، ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٦ برقم: ٧٨٦٣).

لا يُعقل أن ندل الناس على شيء لا نعرفه، ولم نتذوقه، ولم نر أثره، فهذا إن تم فإنه يعرضنا للمقت من الله كما أخبرنا سبحانه بذلك: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣].

ومن شأنه أن يجعل الكلام لا يخرج من القلب، فلا يتعرض للتوفيق الإلهي، ولا يُشعر مستمعه بحرارته فكما قيل: ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة.

انتبه

سواء كنت أخي القارئ: حافظًا للقرآن، أو عالمًا من العلماء أو داعية أو كاتبًا أو مربيًا، مهما كان سنك، ومهما كانت مكانتك بين الناس، لا بد لك أولًا من الدخول إلى دائرة التأثير المزلزل للقرآن والانتفاع به والشعور الحقيقي بأثر معجزته في نفسك، ورؤية أنواره، وهذا يحتاج منك إلى أن تدخل إلى القرآن من بابه الوحيد الصحيح، وتغلق جميع الأبواب الأخرى وأن تستشعر حاجتك الماسة إلى القرآن ثم تقبل عليه بشغف باحثًا عن التأثير المزلزل من خلال تلاوة آياته، وهذا ما أُوصي به نفسي وإياك، فعلى قدر ما سنُعطي القرآن من أوقاتنا وعقولنا ومشاعرنا سيعطينا ويعطينا، وعلى قدر ما سنتواضع أمامه، وندخل عليه دخول الملهوف المتشوق لرؤية معجزته، الباحث عن حياة قلبه ستكون النتيجة المبهرة بمشيئة الله.

أما إذا دخلنا عليه دخول المتردد الذي لا يستشعر احتياجه إليه فسنبتعد كثيرًا عن دائرة معجزته.

ولنعلم جميعًا أن الإمداد على قدر الاستعداد، وأن التفاوت الحقيقي بين الناس ليس في الإمكانات، بل في الرغبات، فمن لديه رغبة أكيدة في الوصول

لشـــيء ما فإنه -بعون الله- يبلغه. ويؤكد هذا المعنى ابن الجوزي بقوله: لو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد لرأيت المقصر في تحصيلها في حضيض [١].

فيقينًا لو قويت رغبتنا في الانتفـاع بالقرآن، والدخول في دائرة تأثير معجزته المزلزلـة.. لو قويت رغبتنا واشـتدت حاجتنا للقلب الحي، للسـعادة الحقيقية، لمعرفة الله، لجنة الدنيا،... فيقينًا سـنصل إلى مقصودنا في وقت قياسـي، وكيف لا والله عَزَّوَجَلَّ ينتظـر منا التفاتة صادقة ليُقبل علينـا، أتراه يمنعنا من جريان معجزة القـرآن علينا وهو يحبنا ويريد لنا الخيـر؟ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

كل ما هو مطلوب منا أن نحرك قدم العزم، ونشمر عن ساعد الجد، وأن نلح علـى الله في الدعاء بأن يجعلنـا من أهل المعجزة القرآنية، ثـم نقبل على القرآن باجتهاد وصدق ننتظر الفتح منه سـبحانه. قال رسـول الله ﷺ: «... **وَمَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ**»[٢].

من أخطر العقبات

من الأمور التي قد تمنع المرء منا من استشـعار حاجته إلى المعجزة القرآنية المزلزلـة أنه قد تعود على التفكر في القرآن واسـتخراجه لمعانٍ عظيمة منه، فهذا من شـأنه أن يُشـعره بأنه قد أدى حق القرآن، وانتفع بـه؛ ومن ثمَّ لا يقع الحديث عـن المعجزة القرآنية موقعه الصحيح في نفسـه، ولا يتفاعـل معها، بل قد يعتبر

(١) صيد الخاطر (ص: ١٧٣) -دار القلم.

(٢) جزء من حديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ١١٨ برقم: ٢٦٦٣)، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، من يتحر الخير يعطه**..» وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٧٤)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (برقم: ٩٣)، باب أن العلم بالتعلم.

أن هـذا الكلام موجهًا إلـى غيره، فهو يظن أنه قد حقق المـراد من نزول القرآن: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، وهذا غير صحيح والله أعلم، وللأسـف مع هجر القرآن وغياب الصورة الذهنية عـن الانتفاع الحقيقي به، فقد حدث خلط كبير بين مفهوم التدبر الصحيح الذي هو الغاية من تعاملنا مع القرآن، وبين التفكر العقلي الذي لا يصل إلى القلب منه شيء.

وبإذن الله في الأسـطر القادمة بيان وتوضيح حـول معنى تدبر القرآن، وهل المقصد منه إعمال العقل فقط في الآيات التي نتلوها أم أن الأمر يحتاج لأكثر من ذلك؟

معنى التدبر

لقـد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ القرآن لنتفكر فيه تفكرًا يقود إلى التدبر بمعناه الصحيح: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل: ٤٤]، والتفكر الصحيح يقود إلى تذكر حقائق الإيمان، وكلما تعرض العقل أكثر للقرآن وزاد تفكره فيه تفتحت نوافذه شـيئًا فشيئًا، وزادت مساحة التذكر ليعود شيء من أثرها على القلب فيرسـخ فيه وهو ما يُطلق عليـه «التدبر» وهذه هي حقيقة عمل القرآن مـع القلب: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

فالتدبـر معنـاه: طلـب دُبـر الشـيء، أي عاقبتـه، وما يـؤول إليه معنـاه.. فآثار معانـي التألُّـه لله والإخـلاص لـه والتـوكل عليـه والاسـتعانة بـه ومحبته وخشـيته ورجائـه وحُسـن الظـن فيـه ومهابتـه وإجلالـه وتعظيمـه والخضـوع لـه... عندمـا تصـل تلـك الآثـار إلى القلب وترسـخ فيه؛ حينئذٍ نكون قد سـرنا فـي طريق التدبر

وانتفاع القلب بالقرآن، وكما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يصف صورة الانتفاع الحقيقي بالقرآن: «... **إِنَّ قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ، فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ**»[1]... فالتدبر مكانه القلب، أي أن العقل محل التفكر والتذكر، والقلب يتأثر ويتعظ، فإن انتفت عنه الموانع وفُتحت أقفاله يحدث التدبر بأمر الفتاح العليم، أي وصول معاني القرآن ورسوخها فيه -بإذن الله- ومن ثم احتلالها جزء من مشاعره، وباستمرار التدبر تهيمن هذه المعاني على القلب فيُسلم كله لله.

وفي قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤** ﴾ [محمد: ٢٤]، إشارة إلى أن ما يمنع الناس من تدبر القرآن هي الأقفال التي تُغلق القلوب، لذلك فإن إطلاق لفظ «تدبر القرآن» دون توضيح المقصود منه قد يؤدي إلى الخلط بين التفكر العقلي والتدبر القلبي، بل من المتوقع أن نتجه نحو التفكر العقلي لإمكانية قيامنا به من ناحية، ولصعوبة التدبر القلبي من ناحية أخرى.

إن تدبر القرآن عمل قلبي -غالبًا- لا نستطيعه بسبب الأقفال التي تُغلق القلوب، أما اللفظ الصحيح الذي ينبغي أن نتعاطاه ويعبر عن واقعنا فهو: «**التفكر في القرآن**»؛ لأن التفكر أمر يقدر عليه الجميع -بإذن الله- بشيء من الجهد.

وحين نقرأ كلام العلماء بأهمية وضرورة تدبر القرآن فعلينا أن نستحضر هذا المعنى، وأن التدبر بمعناه الصحيح يستلزم التفكر والتذكر وفتح أقفال القلب وليس فقط إعمال العقل في فهم الآيات مهما كان تنوع المعاني المستخرجة.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ١٠٥)، دار إحياء التراث العربي.

يقــول ابن القيم: «فلــو رُفعت الأقفال عن القلوب لباشــرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان»[١].

بناء الإيمان من خلال القرآن

من هنا يتأكد لدينا بأن المقصد مــن التعامل الصحيح مع القرآن ليس التفكر فيــه فقط، بل أن يصبح القرآن مصدرًا رئيسًــا لتوليد القوة الروحية، وبناء الإيمان، والوصول بالقلب إلى حالة القلب الأبيض الســليم، وهذا يســتلزم حصول التأثر المزلــزل وتجاوب المشــاعر مع المعاني التي تفهمها عقولنا، كما ســبق بيانه في الأســطر السابقة.. فهذا الذي يزيد الإيمان ويولد الطاقة، ويسير بالقلب قُدمًا نحو التحرر من أسر الهوى؛ ومن ثمَّ تتم يقظته وحياته الدائمة.

إن العلــم وحده لا يكفي ليكون دافعًا للعمل، بــل لا بد أن يمتزج بالعاطفة، ويؤثر في المشاعر والقرآن يفعل ذلك بكل سهولة ويسر إذا ما أحسن المرء التعامل معه، وقراءته بالطريقة التي تخاطب الفكر والعاطفة معًا، والتي دلنا عليها الله عَزَّوَجَلَّ عندما أمرنا بترتيله والتفكر فيه وتدبره بمفهوم التدبر الصحيح.

فمخاطبة الفكر تحتاج إلى إعمال العقل عند تلاوة الآيات... وهذا هو جوهر التفكر الذي أمرنا الله بــه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

ومخاطبة العاطفة تحتاج إلى وسائل تستثيرها، فبالإضافة إلى أساليب القرآن المؤثرة، إلا أن هناك أمرًا بالغ الأهمية يقوم بالطرق على المشاعر طرقًا شديدًا ألا وهو الترتيل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ٤]، وتحســين الصوت بالقراءة،

(١) التفسير القيم (١/ ٢٠٠).

يقول رسول الله ﷺ: «**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**»(١).

فإذا ما قام المرء بقراءة القرآن قراءة هادئة مترسلة مرتلة مع إعمال العقل فيما يقرأ، فسيكون لذلك دور واضح -بإذن الله- في مزج الفكر بالعاطفة والوصول لدرجة التأثر النسبي الأوَّلي والتفاعل مع الآيات؛ ومن ثمَّ تكون الطاقة والروح الدافعة للعمل..

خصوصية الترتيل

ولأن القرآن هو الوحيد في الكتب السماوية الذي يجمع بين الرسالة والمعجزة، فقد ميَّزه الله عَزَّوَجَلَّ بأن يُقرأ مرتلًا، فالتوراة والإنجيل لم يؤمر الناس بترتيلهما، والله أعلم، وكذلك فإن القرآن كان ينزل منجَّمًا على مراحل، ولم ينزل جملة واحدة مثل التوراة، وذلك للقيام بدوره العظيم في إنشاء الإيمان وتثبيته في القلب: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٢].

ولقد كانت قراءة رسول الله ﷺ للقرآن قراءة هادئة مترسلة مرتلة، فقد كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها، وقام بآية حتى الصباح، وكان ﷺ يقف عند المعاني متأملًا ومعتبرًا:

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

(١) رواه ابن حبان في صحيحه كتاب الرقائق باب قراءة القرآن ذكر إباحة تحسين المرء صوته بالقرآن (٣/ ٢٦ برقم: ٧٤٩).

التأثر بالمعنى هو بداية التمهيد لطريق التدبر

مــن هنا يتضح لنا أن الهدف الأوَّلي الــذي ينبغي أن نضعه نصب أعيننا حين نقــرأ القرآن هو التأثر بما تدل عليه الآيات من معــانٍ، هذا التأثر هو بوابة وصول معانــي القرآن إلى القلب، فمهما فهمنا وتفكرنا في الآيات دون أن يصاحب ذلك تأثر، فلن يفعل القرآن ما نريده منه، ولن نشعر بمعجزته المزلزلة وهي تعمل داخلنا وتقوم بتوصيل تيار الحياة إلى قلوبنا.

ولقد تمت الإشارة إلى الوسائل المعينة على الوصول إلى درجة التأثر النافع في غير هذه الصفحات بشيء من التفصيل ونكررها هنا بشكل مختصر بعون الله، ونبدأ بالتذكير بأهمية الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح.

الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح

لكـي تتـم لنـا الاسـتفادة الحقيقيـة مـن القـرآن ويكـون دليـلًا يهدينـا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وسـببًا يقربنـا إليـه ويصلنـا بـه، ودواءً نستشـفي بـه مـن أمراضنـا، ومصدرًا متفـردًا لزيـادة الإيمـان فـي قلوبنـا، وجـلاءً للهمـوم والغمـوم والأحـزان ومنبعًـا صافيًـا لتحصيـل العلـم النافـع.. لكي يتـم لنا كل هـذا وغيره.. لا بد مـن الدخول إليـه مـن بابـه الصحيح..

إن الباب الصحيح -الذي لا باب غيــره- للانتفاع بالقرآن وتحقيق مراد الله بنزوله يســتلزم الاعتقاد الجازم أنــه المصدر المتفرد الــذي لا مثيل له لتحصيل الهداية الشــاملة الكاملة، والشفاء التام، والعلم النافع، والتغيير الجذري، وأن يتم التعامل معه بناء على هذا الاعتقاد، وهو ما تعبر عنه عبارة «الإيمان قبل القرآن».. أي: الإيمــان بأن القرآن هو المصدر الوحيد للهداية الشــاملة التامة وأنه لا يمكن تحصيلها بدونه..

.. والإيمـــان بأن القرآن هو الدواء الناجع المتفرد لشـــفاء القلب وعودته إلى صحته وفطرته..

.. والإيمان بأن القرآن هو المصدر الأســـمى للعلـــم النافع المقرب إلى الله، والمورث لخشـــيته، وأنه لا يوجد مصدر آخر يضاهيه أو يقترب منه.... والإيمان بـــأن القرآن هو القـــادر -بإذن الله- على تغيير أي إنســـان، ومن أي وضع ســـلبي هـــو فيه إلى الحال الـــذي يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ، فيلحقه بصفوف عبـــاد الله الصالحين المصلحين..

.. علينا أن نســـتحضر هذا المعنى حيـــن ندخل إلى القرآن.. فالغاية من نزول القرآن هي: تحصيل الهداية التامة والشـــفاء الكامل والتغيير الجذري.. فينبغي أن يكـــون منطلق علاقتنا بالقرآن مرتبطًا بهذه الغاية.. ويكون الهدف الأول من اللقاء معه تحصيل هدايته وشـــفائه وتقويمـــه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإســـراء: ٩]. والدليل العملي على صحة هذا الإيمان وتلبســـنا به هو مراقبة حالة الترقب واللهفة لتلاوة القرآن، والتعامل معه بنفســـية الأمي الشـــغوف المســـتعد للتنازل عن تصوراته ومفاهيمه وما فيها من خطأ أو خلط واستســـلامه لتصورات ومفاهيم القرآن، وكذلك مراقبة مدى استعداده للعمل بما علم من القرآن..

ومن الناحية العملية ينبغي أن يكون هدفنا من قراءة القرآن التأثر القلبي وليس التفكر العقلي فقط، وهذا يســـتدعي منا القراءة اليوميـــة للقرآن، وأن تكون قراءته متصلـــة وبمدة معتبرة، وأن يكون وردنـــا اليومي زمنًا وليس كمًا محددًا وذلك بأن يكون ساعة أو ساعتين، وأن نقرأه في مكان هادئ قدر المستطاع، وبصوت مسموع وبترتيل، وأن نتباكى عند القراءة لنهيئ مشـــاعرنا لسرعة الاستثارة، ولا يكون همنا

هو سرعة الانتهاء من السورة أو الجزء...

وعلينا أن نقرأه بسهولة كبادِيَ الرأي[١]، ودون تعمق وتوقف عند كل لفظ فيه، بل نأخذ المعنى الإجمالي الذي تدل عليه الآيات، وأن نمرر ما لا نفهمه، على أن نعود للتفسير في وقت آخر غير وقت التلاوة، حتى لا يحدث برود أو فتور في المشاعر؛ ومن ثمَّ يصبح من الصعب استثارتها بعد ذلك.

وعندما يحدث التأثر مع آية أو آيات فعلينا تكرارها مرات ومرات إذا وُجد التجاوب والتأثر؛ لنستفيد قدر الإمكان من الإيمان الذي نحسب أنه يزيد في هذه اللحظات، ولنستفيد كذلك من الطاقة المتولدة الناتجة من هذه الحالة.

الإنصات التام أثناء التلاوة

أيضًا هناك وسيلة في غاية الأهمية لا بد أن تصاحبنا أثناء تلاوتنا للقرآن، وبإذن الله تسرع بنا الخطى إلى التأثر بالقرآن والانتفاع به وهي الإنصات التام -قدر المستطاع- لما نقرأ أو نسمع من الآيات.. فما هو المقصود بالإنصات؟

الإنصات هو أعلى درجات تركيز المرء مع الصوت، سواء أكان هذا الصوت يأتيه من مصدر خارجي، أم كان يردده بلسانه، أم يقرؤه بعينه.

فقد يحدث أن يسمع الشخص كلامًا وهو شارد الذهن يفكر في موضوع (ما)؛ مما يجعله لا يستمع لما يتلقاه بالكلية ولا يفهم المراد من الكلام.

وقد يحدث أن يسمع كلامًا وهو يريد سماعه لكنه ليس بصافي الذهن، فهو هنا

(١) صاحب الفهم المباشر للأمور والذي يبدو لغيره أنه فهم سطحي.

يســتمع للكلام ويعرف محتواه، ولكنه غير مستغرق معه، كأن يفكر في موضوع آخر في الوقت ذاته، أو يســتمع إلى كلام آخر، أو يناجي من حوله، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧].

فإذا ما شعر المرء بأهمية ما يسمع أو يقرأ، وكان الكلام مما تشتد حاجته إليه:... تجده يُصغي سمعه وينصت، فينتقل من مرحلة الاســتماع إلى مرحلة الإنصات والإصغاء؛ حيث التركيز التام لما يتلقى لدرجة الاستغراق والتوحد مع ما يتلقاه.

وهــذا الصنف الثالث هو الذي حثنا الله جل شــأنه عــلى الاتصاف بحالهم عند التعامل مع القرآن العظيم، ســواء أتلوناه بألســنتنا أم اســتمعنا إليه من غيرنا: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ويقص علينا القرآن المجيد قصة الجن حين اســتمعوا القــرآن للمرة الأولى، فقد أدركوا أهميته القصوى، وحاجتهم الماسة إليه فماذا قالوا؟! ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فحري بنــا أن نفعل مثل ما فعلوا حتى ننتفع بالقرآن: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

لو داومنا على هذه الوسائل لدخلنا إلى دائرة تأثير القرآن -بإذن الله- في مدة وجيزة، ولشعرنا بالتغيير، وبروح جديدة تسري داخلنا، ولعدنا -على الأقل- إلى مرحلــة الانتباه التي كنا عليها عند بداية تديننــا، ولوجدنا قلوبنا تتحرك معنا حين نريدها، ولعَظُم قدر الله في نفوسنا ولصغرت الدنيا في أعيننا و... كل ذلك وغيره ســيحدث بمشــيئة الله لو ثابرنا على اتباع هذه الوسائل، وانشغلنا بالقرآن أكثر مما ننشغل بأي شيء.

أتأثر ولكن!

فإن قلت إنني بالفعل أتأثر بالقرآن ولكني لا أشعر بآثار المعجزة ولا بعلامات دخول النور إلى القلب؟!

...نعم، يحدث هذا لنا لأننا -بالأساس- معاقبون بالحرمان من أثر هذه المعجزة بما فعلناه مع القرآن من أخطاء، وبهجرنا للانتفاع الحقيقي به في تحصيل الهداية التامة، والشفاء الكامل، والتغيير الجذري، والعلم النافع المقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فصارت هناك حُجب على قلوبنا وأقفال تحول بيننا وبين أثر معجزته الفذة.. فتصبح القلوب في ظلمة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العبد في ظلمة ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من روحها وحياتها، وإلا هو في ظلمات وفي حكم الأموات..!»[(١)].

---

(١) الفتاوى (١٩/ ٩٣ ، ٩٤). تحت عنوان: حاجة الناس إلى الرسالة.
«قَاعِدَةٌ نَافِعَةٌ فِي وُجُوبِ الِاعْتِصَامِ بِالرِّسَالَةِ، وَبَيَانِ أَنّ السّعَادَةَ وَالْهُدَى فِي مُتَابَعَةِ الرّسُولِ ﷺ وَأَنّ الضّلَالَ وَالشّقَاءَ فِي مُخَالَفَتِهِ وَأَنّ كُلّ خَيْرٍ فِي الْوُجُودِ، إمّا عَامٌّ وَإِمّا خَاصٌّ فَمَنْشَؤُهُ مِنْ جِهَةِ الرّسُولِ وَأَنّ كُلّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ مُخْتَصٌّ بِالْعَبْدِ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرّسُولِ أَوْ الْجَهْلُ بِمَا جَاءَ بِهِ وَأَنّ سَعَادَةَ الْعِبَادِ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ بِاتّبَاعِ الرّسَالَةِ. وَالرّسَالَةُ ضَرُورِيّةٌ لِلْعِبَادِ لَا بُدّ لَهُمْ مِنْهَا وَحَاجَتُهُمْ إلَيْهَا فَوْقَ حَاجَتِهِمْ إلَى كُلّ شَيْءٍ، وَالرّسَالَةُ رُوحُ الْعَالَمِ وَنُورُهُ وَحَيَاتُهُ فَأَيّ صَلَاحٍ لِلْعَالَمِ إذَا عَدِمَ الرُّوحَ وَالْحَيَاةَ وَالنّورَ»؟
وَالدّنْيَا مُظْلِمَةٌ مَلْعُونَةٌ إلّا مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الرّسَالَةِ وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ مَا لَمْ تُشْرِقْ فِي قَلْبِهِ شَمْسُ الرّسَالَةِ وَيَنَالُهُ مِنْ حَيَاتِهَا وَرُوحِهَا فَهُوَ فِي ظُلْمَةٍ؛ وَهُوَ مِنْ الْأَمْوَاتِ قَالَ اللّهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فَهَذَا وَصْفُ الْمُؤْمِنِ كَانَ مَيّتًا فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ فَأَحْيَاهُ اللّهُ بِرُوحِ الرّسَالَةِ وَنُورِ الْإِيمَانِ وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ. وَأَمّا الْكَافِرُ فَمَيّتُ الْقَلْبِ فِي الظّلُمَاتِ. وَسَمّى اللّهُ تَعَالَى رِسَالَتَهُ رُوحًا وَالرُّوحُ إذَا عَدِمَ فَقَدْ فُقِدَتْ الْحَيَاةُ قَالَ اللّهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] فَذَكَرَ هُنَا =

ويقــول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَلَوْ رُفِعَــتِ الأقْفالُ عَنِ القُلُوبِ لَباشَــرَتْها حَقائِقُ القُرْآنِ، واسْتَنارَتْ فِيها مَصابِيحُ الإيمانِ[1].

فلكــي ترق الحجب التي بيننا وبين المعجــزة القرآنية، ولكي تصل المعجزة القرآنيــة إلى قلوبنــا فتمدها بتيار الحياة لا بد وأن يســتمر التأثــر بالمعنى ويزداد وقته ويطول أمده يومًا بعد يوم، فتنتقل المشــاعر تدريجيًّا من كفة الهوى إلى كفة الإيمــان، وهكذا حتى نصل لمرحلة غلبة الإيمــان على الهوى، وتمكن النور من القلب؛ ومن ثمَّ تظهر علامات ذلك بســهولة ويســر، وهذا يستدعي منا أن نعطي القرآن الكثير من الأوقات، وألا نســمح بمرور يــوم دون اللقاء معه، وألا نتعجل قطف الثمرة قبل نضجها. لعل ذلك يفتح الأقفال ويجعل نور القرآن يشــرق على القلب.

ولنتذكر أن هذا هو فعل الصحابة، وأن رسول الله ﷺ لم يسمح لهم بالانشغال بقراءة شيء آخر غير القرآن حتى يصفو النتاج وتطيب الثمار.

وقد كان؛ فعندما أعطوا القرآن الكثير من أوقاتهم وانشغلوا بتلاوته، وتعاملوا معه على حقيقته ككتاب هداية، وكمعجزة تحيي القلوب أحســن القرآن وفادتهم ورفعهم إلى السماء فكانوا بحق الجيل القرآني الفريد.

= الْأَصْلَيْنِ وَهُمَا: الرُّوحُ وَالنُّورُ فَالرُّوحُ الْحَيَاةُ وَالنُّورُ النُّورُ. وَكَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ حَيَاةً لِلْقُلُوبِ وَنُورًا لَهَا بِالْمَاءِ الَّذِي يُنَزِّلُهُ مِنْ السَّمَاءِ حَيَاةً لِلْأَرْضِ وَبِالنَّارِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا النُّورُ وَهَذَا كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد: ١٧].

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٣٧).

مع الأخذ في الاعتبار أن هناك ممارسات خاطئة ينبغي أن يتجنبها المرء حتى يعود لقلبه قدر القرآن شيئًا فشيئًا، وإلا فتأثره الذي يشعر به تأثر قشري لا يؤدي -والله أعلم- إلى إزالة الحجب، أو نزول القرآن بروحه على القلب ومن ثم لا تشرق شمسه عليه...

وبعد أن نتذوق حلاوة الإيمان من خلال القرآن، ونشعر بشيء من قيمته، ونرى آثار معجزته في أنفسنا، علينا أن نقوم ببث هذه الروح في الأمة.

.. نعم، الأمر ليس بهذه السهولة فالإيمان والثقة بقدر القرآن قد نقص بشدة في القلوب والدليل على ذلك تلك الممارسات الخاطئة والمختلطة معه؛ لذلك فإن عودة القرآن من غربته تحتاج إلى جهد كبير يُبذل.. تحتاج إلى أن نأخذ أمر القرآن بقوة ونصبر على ذلك.. وهذا المعنى يحتاج إلى تفصيل في الصفحات القادمة بعون الله.

وخلاصة القول: إن القرآن هو الطريق الوحيد الأكيد لنهضة الأمة وعودة شرفها المسلوب، ولكن هذا يتطلب منا جهدًا حقيقيًّا نبذله معه، بدايةً من إعادة الثقة فيه، والدخول إليه من بابه الصحيح كمصدر متفرد للهداية والشفاء والتغيير والعلم النافع المقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإعطائه الوقت الكافي من يومنا مع ترتيله والتغني به والإنصات التام لآياته، والمثابرة على ذلك حتى يأذن الله عَزَّوَجَلَّ ويفتح قلوبنا، فهو سبحانه الفتاح العليم.

• • •

الفصل السادس

فلنأخذ أمر القرآن بقوة

- الصراط المستقيم.
- القرآن أعظم مؤدب.
- كتاب عزيز.
- الدفعة الأولى.
- ويضع به آخرين.
- ليسوا سواء.
- العقوبة عامة.
- بل نحن جميعًا محرمون.
- المعركة الكبرى.
- الصعوبة البالغة لمعركة تحويل الوجهة نحو القرآن.
- صعوبات البداية وفضل أهلها.
- وصايا على الطريق.

فلنأخذ أمر القرآن بقوة

عرض لنا القرآن العظيم ألوانًا من المعجزات المادية التي جرت لبني إسرائيل في زمن نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومن ذلك ما تضمنه قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٠].

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف: ١٧١].

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [البقرة: ٦٠].

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٥٧].

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣].

.. وكان ميلاد عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ معجزة عظيمة، وحين أرسله الله لبني إسرائيل

أيده أيضًا بمعجزات باهرة:

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

فـإذا ما قارنَّا ذلك بما حدث مع رسـول الله محمد ﷺ في دعوته لقومه نجد أن المعجزات المادية المؤيدة له قليلة قياسًا بمن سبقوه من الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، مع الأخذ في الاعتبار أنه خاتم المرسلين، ورسالته خاتمة الرسالات.

فلماذا؟!

لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد أيده بالمعجزة الكبرى والنعمة العظمى التي تتضاءل بجوارها كل معجزة أخرى.. أيده بالقرآن العظيم..

قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(١)].

لذلـك حين طالب أهـل مكة الرسـول ﷺ بآيات تثبت صحـة نبوته.. كان الجواب بأن القرآن هو أعظم الآيات:

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ

(١) البخاري (٦/ ١٨٢ برقم: ٤٩٨١)، ومسلم (١/ ١٣٤ برقم: ١٥٢).

قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ؟

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

وعندما طالبوه بنزول الملائكة ورؤيتهم لإثبات صدقه والتأكيد على أنه رسول الله؛ كان الجواب بأنه قد نزل إليكم ما هو أعظم من ذلك:

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ

لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ

مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٦ - ٩].

وحين طلبوا منه إحياء موتاهم وتحريك جبال مكة لجعل أرضها سهولًا تصلح للزراعة [١]. كان الجواب بأنه لو سُمح للقرآن أن يفعل ذلك لفعل بإذن الله:

(١) جاء في سبب نزول هذه الآية أن نفرًا من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية المخزومان جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم؛ فقال له عبدالله: إن سرك أن نتبعك فسيِّر لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنا حتى نتفسح؛ فإنها أرض ضيقة، واجعل لنا فيها عيونًا وأنهارًا، حتى نغرس ونزرع، فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه، وسخر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضي عليها ميرتنا وحوائجنا، ثم نرجع من يومنا، فقد كان سليمان سخرت له الريح كما زعمت؛ فلست بأهون على ربك من سليمان بن داود، وأحي لنا قصِّيا جدك، أو من شئت أنت من موتانا نسأله: أحق ما تقول أنت أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى، ولست بأهون على الله منه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾ الآية؛ قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقتادة والضحاك.. والجواب محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكن حذف إيجازًا، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه.. تفسير القرطبي.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد: ٣١].

وجواب الشرط محذوف وتقديره: لكان هذا القرآن..

وكرروا طلبهم بآية يرونها تثبت صدق رسول الله ﷺ فتكرر الجواب: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه: ١٣٣].

الصراط المستقيم

فيقينًا أن هذا القرآن هو أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾ [المائدة: ٣].

.. القرآن هو داعي الله الهادي إلى الصراط المستقيم، من لزمه واستمسك به وصل إلى الله بأمان وسلام: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ [الكهف: ١].

فالقرآن المجيد: ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «الصراط المستقيم: كتاب الله»(١).

وفي حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**ضَرَبَ اللهُ مَثَلا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا عَلَى كَتِفَيِّ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى الصِّرَاطِ دَاعٍ يَدْعُو، يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْلُكُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلا تَعْوَجُّوا، وَدَاعٍ يَدْعُو عَلَى الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ فَتْحَ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْلَكَ لا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، فَالصِّرَاطُ: الإِسْلامُ، وَالسُّتُورُ:**

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥١).

حُدُودُ اللهِ، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ، وَالدَّاعِي الَّذِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقُ وَاعِظُ اللهِ يَذْكُرِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[1].

أخي

.. إن القرآن العظيم هو المصدر الوحيد المتفرد للهداية التامة الكاملة الصافية.. وكيف لا وهو «**هُدى الله**»:

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [الزمر: ٢٣] وهُدى الله هو الهدى الكامل التام: ﴿ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٣].

وأي هداية أخرى يحصلها المرء دون القرآن فهي هداية ناقصة غير تامة ولا كاملة ولا صافية، ناهيك على أن ما فيها من خير يتضمنه القرآن: ﴿ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

هذا القرآن

حين انطلق موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يبحث عن الرجل الصالح الذي أُخبر بأنه أعلم منه؛ كان هدفه من لقائه: ﴿ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾ [الكهف: ٦٦] والرشد هو قمة الصواب والسداد... ومع وجود القرآن العظيم لا يحتاج المرء لتحصيله إلى مثل رحلة نبي الله موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فهو كتاب الهداية إلى الرشد؛ بهذا نطق الجن

(١) مسند أحمد (٢٩/ ١٨١ برقم: ١٧٦٣٤)، والمستدرك (١/ ١٤٤برقم: ٢٤٥)، وجامع العلوم والحكم (٢/ ١٦١).

حين استمع القرآن:

﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ ﴾ [الجن: ١ ، ٢].

... القرآن هو مصدر الحكمة التامة البالغة:

﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ

حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ ﴾ [القمر: ٤ ، ٥].

﴿ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ٥٨].

.. وهو المنبع الشامل للعلم النافع المقرب إلى الله جل شأنه:

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي

وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

﴿ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ

وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ [طه: ١١٤].

.. وبه الشـفاء التام لأمراض القلب والعقل من شـبهات وشهوات وإرادات فاسدة:

﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى

وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ ﴾ [يونس: ٥٧].

وهو الوسيلة المتفردة التامة والمتوازنة للتقويم والتربية التي يقوّم ويؤدب الله بها عباده:

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفرقان: ٦].

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

فالقرآن أعظم مؤدب

عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**كُلُّ مُؤَدِّبٍ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى مَآدِبُهُ، وَأَدَبُ اللهِ الْقُرْآنُ، فَلا تَهْجُرُوهُ**»(١).

..القرآن العظيم هو الذي هَدى الله به نبيه وأدبه ورفعه إلى أعلى الدرجات، وصار به أفضل الخلق:

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ [سبأ: ٥٠].

.. وهو النور المبين المُخرج -بإذن الله- من الظلمات إلى النور:

﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦].

.. وهو رحمة الله بعباده:

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

.. ومنبع السعادة: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٢].

.. ومصدر الرفعة والشرف: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

---

(١) سنن البيهقي (٣/ ٣٩١ برقم:١٨٥٧)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: ٥٠)، وأحمد بن حنبل في الزهد (برقم: ٩٠٥).

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

.. به البصائر التي يحتاجها العبد ليعقل آيات ربه ويستدل من خلالها عليه:

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾

[الأنعام: ١٠٤].

﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠].

.. وهو روح من أمر الله تدب في ألفاظه فتحيلها قولًا ثقيلًا مزلزلًا:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

.. إنه القرآن الذي لو سُمح له بمخاطبة الجبال الرواسي لصدَّعها وفتَّتها:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾

[الحشر: ٢١].

كتاب عزيز

ومع كون القرآن المجيد بهذا القدر العظيم والوظائف المتفردة إلا أنه لا يعطي هذا الخير العميم إلا لمن يستحقه، فهو كتاب عزيزٌ؛ يتعزز على من لا يُحسن التعامل معه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت: ٤١].

وهو كتاب كريم لمن يُقبل عليه ويأخذه بقوة.. أو بمعنى آخر: لا يمنح أنواره وشفاءه وروحه وهدايته إلا لمن يُحسن استقباله على حقيقته كمصدر متفرد للهداية والشفاء والتغيير، ويستمسك به استمساكًا تامًا، ويسلم له قياده؛ ويتجرد له، ولا يخلطه بغيره:

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ
إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ
لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٩].

وعلى قدر ترك الاستمساك الحقيقي به تكون العقوبة ويكون التعزز.. وتشتد وتتصاعد العقوبة حتى تبلغ ما بلغت مع كفار مكة:

﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ
قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ
وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ
وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٩ ، ١١٠].

ولئن كان هذا الخطاب موجه بالأساس للكافرين، إلا أن المسلمين بعد الجيل الأول قد نالهم نصيب منه بدرجات متفاوتة، بدأت بدرجة يسيرة وانتهت بنا إلى أسوأ حال وصلت إليه الأمة في علاقتها بالقرآن، وكيف لا وقد تعاملنا معه بغير ما أراد الله عَزَّوَجَلَّ.. ففي البداية؛ خلطوه بغيره، فأصبح أحد مصادر التوجيه والهداية والشفاء.. ثم تراجع دوره بتعاقب الأجيال حتى صار من الناحية الموضوعية مصدرًا فرعيًّا هامشيًّا من مصادر تحصيل الهداية والشفاء والتغيير -إن لم يكن قد تم استبعاده بالكلية- وانحصر دوره في تحصيل الثواب والبركة!.. فما كان من القرآن إلا أن عزَّ على المسلمين أكثر وأكثر، فامتنع نوره وشفاؤه وروحه عن الوصول إلى قلوبهم، وفي الوقت ذاته لم يحرمهم من التعامل مع ألفاظه.. فكانت تلك العقوبة من أشد العقوبات قسوة، وكيف لا وصاحبها -وما أبرئ

نفسي- يشعر بأنه يتأثر بالقرآن ويهتم به ويخدمه، ومع ذلك فهو بالفعل محروم من أعظم وظائفه ألا وهي تحصيل الهداية والإيمان والشفاء والتغيير.. وصار القرآن على لسانه «قولًا خفيفًا»، وضُرب الحجاب على قلبه فلا ينفذ أثر المعجزة إليه.

.. ترى الواحد منا لا يشعر بأنه محروم، ولا يدرك أن قلبه محجوب عن القرآن، بل قد يرى نفسه أنه من أهله، وينصح الآخرين بأن يحذو حذوه، ولا يمل بعضنا من الحديث عن فضل الانشغال بالقرآن -كما يفعل- فهو يختم القرآن في أيام معدودات، ويتلو الجزء الواحد في وقت يسير..

ولقد تنبأ رسول الله ﷺ بظهور مثل هذه النماذج قال ﷺ:

«سَيَخْرُجُ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَشْرَبُونَ الْقُرْآنَ كَشُرْبِهِمُ اللَّبَنَ»[١].

قال المناوي: أي يسلقونه بألسنتهم من غير تدبر لمعانيه، ولا تأمل في أحكامه، بل يمر على ألسنتهم كما يمر اللبن المشروب عليها بسرعة[٢].

وقال رسول الله ﷺ: **«سَيَخْرُجُ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَشْرَبُونَ الْقُرْآنَ كَشُرْبِهِمُ الْمَاءَ»** [٣].

وكان معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «الله حكم قسط، هلك المرتابون، إن من ورائكم فتنًا يكثر فيها المال، ويُفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل، والمرأة، والصغير، والكبير، والعبد، والحر»[٤].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٩٧).

(٢) فيض القدير (٤/ ١٥٥).

(٣) فضائل القرآن للفريابي (ص: ٢٠٣ برقم: ١٠٩)، والمعجم الكبير (١٧/ ٢٩٧ برقم: ٨٢١)، بلفظ: «**سيخرج أقوام من أمتي يشربون القرآن كشربهم اللبن**».

(٤) أبو داود (٤/ ٢٠٢ برقم: ٤٦١١) ط: المكتبة العصرية (مطولًا)، والمستدرك (٤/ ٥٠٧ برقم: ٨٤٢٢) (مطولًا)، والحلية (١/ ٢٣٣) (مطولًا).

وقال: «سيبلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب، فيتهافت، يقرءونه لا يجدون له شهوة ولا لذة»[١].

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم..»[٢].

ويقول عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كنا صدر هذه الأمة وكان الرجل من خيار أصحاب رسول الله ﷺ ما معه إلا السورة من القرآن أو شبه ذلك، وكان القرآن ثقيلًا عليهم ورزقوا العمل به، وإن آخر هذه الأمة يخفف عليهم القرآن حتى يقرأه الصبي والأعجمي فلا يعملون به»[٣].

إن المقصد من تخفيف القرآن: هو تخفيف قدره لدى المرء، ونزع مهابته من صدره، فيتحول من كونه كلامًا ثقيلًا إلى قول خفيف، فيُقرأ كأي كلام آخر.. بل أقل.. فتجده يدخل إليه وهو غير عابئ أو مهتم بالانتفاع الحقيقي به، وغير مستشعر حاجته إليه، فيستدعي بذلك عقوبة جديدة بأن يُفتح له القرآن أكثر، فتنساب ألفاظه سريعًا على لسانه فيُخدع بذلك ويظنه دلالة على صحة تعامله مع القرآن، وأنه من أهله، فيزداد حماسة نحو الاستمرار في هذا النهج.. بل يزيد! وهكذا.

قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي: «إنما أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأُخر حتى يعلموا ما فيهن من العمل قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعًا، وأنه سيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه

(١) الدارمي (٤/ ٢١٠٧ برقم: ٣٣٨٩).

(٢) البدع لابن وضاح (١/ ٥٩ برقم: ٦٠)، والمدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص: ٢٧٢ رقم: ٣٨٨) (بنحوه)، والإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٣٣٢ برقم: ١٨٩).

(٣) أخلاق حملة القرآن للآجري (ص: ٩٨ برقم: ٣٢).

شرب الماء لا يجاوز هذا وأشار بيده إلى حنكه»[١].

الدفعة الأولى

إن الحديث عن الدور العظيم للقرآن في تحصيل الهداية والشفاء والتغيير ليس حديثًا مبالغًا فيه.. حاشا لله.. بل هو أقل بكثير مما ينبغي أن يقال عن القرآن، ويكفي للدلالة على أهمية هذا التكرار ما حدث للجيل الأول حين أحسن استقبال القرآن وتجرد له، واستمسك به استمساكًا صحيحًا، فجرت عليهم معجزته التغييرية الشاملة، فكانوا -كما قال القرافي: «لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه لكفوه لإثبات نبوته»[٢].

إن من أصعب وأشق الأمور في الحياة تغيير ما بالنفس تغييرًا حقيقيًّا لما يريده الله عَزَّوَجَلَّ، بل لا يخطئ من يقول بأن نقل جبل من مكانه أيسر من تغيير ما بالنفس. فإن حدث بالفعل تغيير حقيقي لجيل من الأجيال فهذه من أعظم المعجزات إن لم يكن أعظمها.

.. لقد أحسن هؤلاء الصحب الكرام الاستمساك بالقرآن؛ فرفعهم الله عَزَّوَجَلَّ وملَّكهم الأرض في سنوات قليلة، مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا**..»[٣].

.. لقد أعاد القرآن صياغتهم فصاروا بحق عبيدًا لله عَزَّوَجَلَّ..

---

(١) فضائل القرآن للفريابي (ص: ٢٤١ برقم: ١٦٩)، وفضائل القرآن للرازي (ص: ١٢٧ برقم: ٩٧)، والبدع لابن وضاح (٢/ ١٧٠ برقم: ٢٥٥).

(٢) الفروق للقرافي (٤/ ١٧٠) ط: عالم الكتب.

(٣) رواه مسلم (١/ ٥٥٩ برقم: ٨١٧).

.. أدَّبهم القرآن وقوَّمهم على أفضل ما يكون التقويم.. فكان منهم الجيل الرباني الذي مكَّنه الله في الأرض، فتحقق فيهم قوله تعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥].

وحين تلقوا القرآن على حقيقته «قولًا ثقيلًا» وأدركوا جيدًا معنى أنه «روح من أمر الله» أيدهم الله بتلك الروح: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ولقد أحسن صاحب الظلال رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصف أثر القرآن فيهم وفي دنيا الناس في كتابه «مقومات التصور الإسلامي» وبفضل الله تم تضمين كلامه في أكثر من موضع سابق تحت عنوان «إنهم صنعوا ها هنا» فحبذا لو عدنا إليه[١]...

ويضع به آخرين

لم تتعامل الأجيال التالية لجيل الصحابة مع القرآن كمصدر متفرد للهداية والشفاء والتغيير وتحصيل العلم والربانية، وخلطوه بغيره فعزَّ عليهم القرآن بقدر هذا الخلط والابتعاد، وفي البداية اشتد انزعاج من بقيَ من الصحابة من هذه الطريقة في التعامل مع القرآن وتوالت تحذيراتهم والإنكار عليهم[٢] ولكن لم يُلتَفت إلى هذا كله..

(١) تم ذكر هذا المعنى في كتب (تحقيق الوصال بين القلب والقرآن- الطريق الوحيد- أين المخرج).
(٢) راجع كتاب غربة القرآن، وكتاب الطريق الوحيد.

واستمر منحنى الأمة في علاقتها بالقرآن نحو الهبوط حتى وصلنا في عصرنا الحالي إلى أبعد نقطة وأسوأ علاقة، والدليل على ذلك ما نحن فيه من ذل وهوان وضياع غير مسبوق والذي يعكس حالنا وعلاقتنا السيئة غاية السوء بالقرآن ويؤكد ذلك قول رسول الله ﷺ: «**أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**»، قالوا: نعم، قال: «**فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا**»(١).

وبمفهوم المخالفة؛ فإن الهلكة والضياع هو مصير المسلمين حين يبتعدون عن الاستمساك الصحيح بالقرآن.

ويقول رسول الله ﷺ: « **كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، مَنْ اسْتَمْسَكَ بِهِ، وأَخَذَ بِهِ؛ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ**»(٢).

وفي خطبته ﷺ بعرفة: «.. **وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابُ اللهِ..**»(٣).

أخي: الأمر واضح وبيَّن.. إن أردنا أن نتعرف على علاقة الأمة الصحيحة بالقرآن فما علينا إلا أن ننظر إلى موقعها بين الأمم وحالة العز أو الذل التي تحياها!! واهتمامات أبنائها، والظواهر السلبية أو الإيجابية المنتشرة بينهم.. ولا نستثني من ذلك أصحاب التوجه الإسلامي أو العاملين في مجال تعلم وتعليم القرآن بإجمال.

---

(١) مسند البزار (٨/ ٣٤٦ برقم: ٣٤٢١)، وابن حبان (١/ ٣٢٩ برقم: ١٢٢)، والمعجم الكبير (٢/ ٢٠٩ برقم: ١٠٤٤)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥ برقم: ٣٠٠٠٦).

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٨٧٤ برقم: ٢٤٠٨)

(٣) رواه مسلم (٢/ ٨٨٦ برقم: ١٢١٨).

.. إن الحقيقة تهتف بأن ما نتجرعه من هزائم منكرة وتفكك وضياع وتسلط أعداء الإسلام علينا هو انعكاس لشدة ابتعادنا عن القرآن، وكيف لا والتمسك الصحيح به يعني الدخول إلى دائرة معجزته المزلزلة والتخلق بأخلاقه ومن ثم الولوج إلى دائرة المعية والنصرة والكفاية الإلهية واستنزال وعوده -سبحانه- بتأييد المؤمنين ونصرهم على عدوهم كما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٣].

﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١].

.. ومن المؤسف أننا لسنا متفقين على هذا التشخيص، بل أغلبنا لا يُقر به، ونتبارى في الحديث عن غيره من الأسباب، وفي الوقت ذاته تسير أمور الأمة من سيىء إلى أسوأ.. فإلى متى نغفل عن المخرج ونتخبط في الظلمات؟!

لنتأمل قول الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۸ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۹ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ [الطلاق: ٨ - ١٠] ألا توافقني أن الآيات تشير إلى أن المخرج من عذاب الله في الدنيا هو هذا القرآن:

﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١].

الجهاد بالقرآن

إن عودة القرآن لمكانتــه الحقيقة في القلوب، ورفع عقوبة تخفيفه، والعمل على إزالة الحجب وفتح أقفال القلوب لتكون مهيأة لنزول القرآن عليها وتمســها روحه فتدب فيها الحياة الحقيقية.. حياة القلب السليم.. لهو الجهاد الكبير وأولى الأولويات التي ينبغي أن ننشــغل بها في وقتنا الحاضر بخاصة مع تلك الغفلة عن حقيقة دوره التي ضربت جنبات الأمة، ولم تستثن إلا نفرًا قليلًا -والله أعلم-..

ولكي نكــون واقعيين في هذا الطرح فإن معركة عــودة القرآن «قولًا ثقيلًا» لمــن أصعب المعارك التــي تُخاض على مر تاريخ الأمة لأنهــا معركة غامضة لا يدرك أبعادها إلا القليل، لا ســيما والقرآن حاضر بيننــا بألفاظه وحُفَّاظه وإذاعاته وجامعاتــه وحلقاته، بل لقد انتشــرت حلقات تدبر آياتــه -بالمفهوم الذي يخلط بيــن التفكر والتدبر- في أماكن كثيرة .. ومن ثم فلســان حال أبناء الأمة -بخاصة أصحاب العاطفة الدينية- يهتف: وما الذي ينقصنا بعد ذلك؟ فإذا ما خاطبهم أحد بأن المطلوب مع القرآن شــيء آخر غير ما نفعل، وأننا نريد الاستمساك الصحيح الكامل به، والتجرد له، وعدم خلطه بغيره.. نريد عودة روح القرآن وقوله الثقيل.. تجدهم -في الغالب- لا يتفاعلون مع هذا الطرح لأنهم من ناحية يعدون أنفسهم من أهل القرآن، ومن ناحية أخرى: ليس لديهم تصور أو صورة ذهنية عن شــكل وجوهر العلاقة الصحيحة بالقرآن.

ليسوا سواء

ومن باب الإنصاف، فإن تعامل أفراد الأمة مع القرآن ليس على درجة واحدة، وإن كانت الغالبية العظمى تشترك في عدم الاستمساك الصحيح الكامل به..

ويمكن تقسيم أحوال المسلمين مع القرآن إلى أربعة أقسام:

القسم الأول

هو القسم الأكبر.. تجد أصحابه في غفلة تامة عن القرآن شكلًا وموضوعًا..

لا يفكرون فيه، ولا يبذلون جهدًا معه.. وهو بالنسبة لكثير منهم: كتاب لاستجلاب البركة والثواب...

بعض هؤلاء يقرؤه في شهر رمضان فقط.. ألفاظًا فقط دون تفكر في معانيها.

القسم الثاني

تجدهم يبذلون جهدًا كبيرًا مع القرآن ولكن في اتجاه الاهتمام بحروفه وألفاظه وإتقان أحكام تلاوته، وقراءاته المختلفة، وبعضهم بل كثير منهم يحفظ ألفاظه كلها، ويتم تقديمه للإمامة، والاحتفاء به وعدُّه من أهل القرآن..

القسم الثالث

هؤلاء أقل عددًا من القسمين السابقين.. قد اعتنوا بالحروف والمعاني والتفكر العقلي، ولكن دون الانطلاق من حقيقة أن القرآن هو المصدر المتفرد الأوحد للهداية التامة؛ ومن ثم الشفاء والتغيير الكامل.

أو بمعنى آخر: يتعاملون مع القرآن على أنه مسار من مسارات تحصيل الهداية..

هم بذلك لم يتوجهوا نحو مشكلتنا الرئيسة مع القرآن من كوننا معاقبين بتخفيفه وحجب روحه عن قلوبنا بسبب ممارسات السابقين الخاطئة معه، مع رضانا بها، والتوسع فيها؛ مما أدى إلى غياب أثره التغييري الجذري الشامل عنا..

وفي الوقت ذاته يعد أفراد هذا القسم أنفسهم في مصاف أهل القرآن وخدامه والحاملين للوائه الصحيح؛ لذلك تجدهم لا يتفاعلون بشكل جدي مع من ينادي بضرورة «العودة إلى القرآن والعمل على الاستمساك الحقيقي الكامل به»، ويساعدهم في ذلك شعورهم بأن القرآن قد فَتح لهم أبوابه بما أفاض على عقولهم من معانٍ جديدة فارقة، وبتأثرهم القلبي بها، وانطلاق ألسنتهم في التعبير عنها، مع ما قد يصاحب ذلك من انبهار المستمعين لها..

أما القسم الرابع

فلعله بالفعل موجود على أرض الواقع، والمتوقع أن يكون أصحابه فئة قليلة جدًّا.. أكرمهم الله عَزَّوَجَلَّ بمعرفة شيء من قدر القرآن ووظيفته المتفردة في التغيير الجذري للفرد على أساس الإسلام الصحيح الكامل.

يعلمون أن الأمة معاقبة بحجب روح القرآن، وتخفيف قدره في قلوب أبنائها، ولفظه على ألسنتهم حتى صار قولًا خفيفًا، ويوقنون بأن المخرج الوحيد من النفق المظلم الذي تسير فيه الأمة هو حُسن الاستمساك بالقرآن واستمطار رحمات الله لرفع عقوبته عنها حتى تمس روح القرآن قلوب أبنائها، ويعود كما أُنزل.. «قولًا ثقيلًا».. ومن ثم يعيد صياغة الفرد: قلبه، وعقله، ونفسه بما يريده الله عَزَّوَجَلَّ..

ولأن عقوبة تخفيف القرآن وحجب القلوب عن روحه عقوبة عامة للأمة بأسرها -والله أعلم؛ فإن أفراد هذا القسم يعانون -مثل غيرهم- من آثارها ولا يشعرون بروح القرآن تسري في قلوبهم، ولا يدركون معنى القول الثقيل لألفاظ القرآن..

.. نعم، من المفترض أنهم يشعرون بهذا الحرمان، وأن أمر القرآن ومعجزته

وأثره غير ما يجدونه، فتراهم يتحسرون على ذلك، ولا يعدون أنفسهم من أهل القرآن..

وفي الوقت ذاته يستشعرون نعمة الله عليهم بأن بصَّرهم بهذه الحقائق قبل مماتهم؛ مما يدفعهم لبذل المزيد من الجهد مع القرآن لعل الله عَزَّوَجَلَّ يتداركهم برحمته ويرفع عنهم عقوبته..

.. يتراوح حال هؤلاء بين قناعة عقلية قوية عن قدر القرآن ووظيفته المتفردة وروحه التي حرمنا منها، وبين عدم هيمنة الإيمان بهذه المعاني على قلوبهم..

فتجدهم: يصفون أمورًا وأحوالًا عن أثر القرآن، وقوله الثقيل، وروحه الغائبة، وأثره التغييري المزلزل.. لكنهم لا يدركون حقيقة تلك الأمور..

.. ومع كثرة حديثهم عن قدر القرآن العظيم، إلا أنهم لا يكادون يشعرون بفارق كبير بينه وبين غيره من الكلام..

.. لا يحسون بثقل القرآن ولا يدركون معنى هذا الثقل..

.. إن سألتهم عن روح القرآن: هل شعرتم بها؟ وهل حياتكم بعدها انقلبت رأسًا على عقب؟

كانت إجابتهم في مجملها تدور حول النفي.

العقوبة عامة

فإن قلت: ولماذا تُحجب روح القرآن وقوله الثقيل عن هؤلاء المؤمنين بالقرآن -إن وُجدوا؟

الجواب بعون الله أن هناك عدة أسباب لهذا الحجب والحرمان.. منها:

أن عقوبة حجب روح القرآن، وتخفيف قدره في القلوب، ولفظه على الألسنة قد عمت أفراد الأمــة وأجيالها المتعاقبة لما أحدثه المســلمون مع كتابهم وعدم تقديره حق قدره، والانشغال بغيره، وغير ذلك من الممارسات الخاطئة معه..

ولئن لم يقع في هذه الممارسات الخاطئة جميع أبناء الأمة؛ إلا أن أغلبهم قد غفل عن تلك الممارســات أو رضي بها، فكانت العقوبات المتوالية والمتصاعدة من الله عَزَّوَجَلَّ حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه من أسوأ حال وصلت إليه الأمة والذي يعكس أسوأ علاقة حدثت مع القرآن طيلة تاريخها..

ولعل هذه الآيات تؤكد الإجابة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٤، ٢٥].

قــال قتادة في تفســير قولــه: (لِمَا يُحۡيِيكُمۡ): هو القــرآن فيه النجــاة والبقاء والحياة..[١].

من هنا كان أحد أسباب تلك الفجوة الحاصلة بين القناعة العقلية لمن يحمل رايــة «العودة إلى القرآن»، وبين حاله القلبــي هو العقاب الجماعي للأمة بحجب قلوبها عن روح القرآن، وتخفيف قدره فيها..

(١) تفسير ابن كثير – دار الكتب العلمية (٤/ ٣٠).

أخي

لنكن صرحاء مع أنفسنا: إن القلوب -والله أعلم- تُنادَى بالقرآن من مكان بعيد مهما حاول البعض تصوير عكس ذلك.. فهناك خط فاصل ضخم بين أن يمس القرآن القلوب وبين أن يُحجب عنها..

والدليل على ذلك هو التغيير الجذري الذي حدث للصحابة بعد تعرضهم للقرآن وتعاملهم الصحيح معه، والذي لم يحدث لنا، ولم نلمس أثره في واقعنا.

هناك حياة جديدة مختلفة جذريًا عن الحياة التي نحياها الآن وذلك حين يمس القرآن -بإذن الله- قلوبنا، ويؤيدنا الله بروح منه: ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

بل نحن جميعًا محرومون

إن الأقسام الأربعة السابقة تشترك جميعها في كون قلوب أصحابها بعيدة عن القرآن، وفي الوقت ذاته لا يشعرون بذلك إلا النادر منهم..

نعم.. لا نشعر أننا محرومون من روح القرآن وقوله الثقيل.. ولا ندرك معنى أن تُنادى قلوبنا بالقرآن من مكان بعيد؛ لأننا لا نعلم ولا ندرك معنى الحال الصحيح مع القرآن، وليس لدينا صورة ذهنية لذلك، وهناك خلط كبير نقع فيه بين معنى التفكر العقلي والتدبر القلبي.

لقد ورثنا العلاقة الشكلية بالقرآن ممن سبقونا، وتوسعنا فيها، ولم نرث منهم شيئًا عن روح القرآن، ولا عن قوله الثقيل، واستسلمنا لهذا الإرث ورضينا به، ولم يخطر على بالنا أننا معاقبون بتخفيف القرآن والحرمان من

قولـه الثقيـل، ومما يزيد الأمـر صعوبة أنه لا توجـد لدينا صورة ذهنيـة عن الحال الصحيـح لأثر القـرآن علـى الفرد.

.. ومع ما قد يكون من إكــرام الله عَزَّوَجَلَّ لفئة قليلة بمعرفة حقيقة غربة القرآن إلا أنهــا لا تزال -في الغالب- معرفة نظرية عقلية، ولم ينجح أصحابها في تخطي الحجــب المضروبة على قلوبهم، فعقوبة الحرمان لا تزال ســارية عليهم كما هي سارية على الجميع..

هذه -أخي- هي الحقيقة بدون مواربة: .. نحن معاقبون ومحرومون من روح القرآن وأثره الفذ على القلوب والعقول والنفوس، ولا نشــعر بهذا الحرمان.. وإن تصورنا أنه قد اقتنع بذلك نفر قليل إلا أنها -والله أعلم- قناعة نظرية لا يمتد أثرها إلى القلب...

طلب التأييد الإلهي مع وجود القرآن

من مظاهر هذه العقوبة المضروبة على قلوبنا أننا كثيرًا ما نطلب من الله عَزَّوَجَلَّ أن يؤيدنا بآيات من عنده تخلصنا مما نحن فيه من ذل وهوان لم يسبق له مثيل..

نطلب هذا الطلب وقد غفلنا عن أعظم آيات الله التي بين أيدينا، وغفلنا كذلك عــن حقيقة أن النصر والفرج قريب وليس بيننا وبينــه إلا إزالة تلك الحُجب التي تحجب قلوبنا عن القرآن وأثره الفذ وقوله الثقيل المزلزل؛ ليسهل علينا الاستمساك به فنتمتع بتأييد الله وكفايته ونصرته.

ولعل حالنا يشترك -بقدر ما- مع ما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٨، ٥٩].

فمعجزة القرآن أعظم معجزة نزلت من السماء.. أنزله الله عَزَّوَجَلَّ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويعيد صياغتهم إلى ما يحبه سبحانه من عباده.. وحين لا يُتعامل معه على حقيقته ويستهان به؛ فسيعاقب الله هؤلاء بالطبع على قلوبهم، فتُحجب عنهم أنوار القرآن وروحه وأثره المزلزل، وتمتد تلك العقوبة لتشمل آيات الله المتنوعة التي يرسلها الله لتذكير عباده وإنذارهم.

.. فيستقبلون تلك الآيات بغفلة وعدم اكتراث.. كما هو حالنا.

.. هذا الاستقبال الفاتر لآيات الله هو انعكاس لتلبس القلوب بعقوبة الطبع.. وأهم ما استدعى تلك العقوبة هو التعامل الخاطئ مع أعظم آيات الله.. القرآن المجيد: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

ولئن كانت آيات سورة الروم تخاطب الكفار الذين لم يحسنوا استقبال القرآن؛ إلا أن واقعنا يهتف بأننا قد نالنا نصيب منها ومما تضمنته من وعيد لما أحدثناه مع القرآن، وما عليك -لتتأكد من ذلك- إلا أن تتفقد قلبك في أوقات كسوف الشمس وخسوفها، واشتداد الريح، والحر الشديد..

هل تشعر بالخوف من عقاب الله كما هو المراد من هذه الآيات؟!

وهل تسارع بالتضرع إليه سبحانه والاستغفار التلقائي والتوبة النصوح؟!

المعركة الكبرى

نكرر بأنه منذ الابتعاد التدريجي للأمة عن الاستمساك الصحيح بالقرآن بعد

جيل الصحابة؛ توالت العقوبات الإلهية المتصاعدة عليها.. وأخطر تلك العقوبات والتـي تفرعت منها كل مصيبة: ما أصاب القلـوب حيث ضُربت عليها الحُجب، وحُرمـت من روح القرآن وقوله الثقيل.. والأدهى والأمرُّ أن هذه العقوبة المرعبة قد صاحبها عدم شـعور بها، وعدم إحسـاس بهذا الحرمان، فعلى سبيل المثال: توهـم الكثيرون أنهم من أهل القرآن لكونهـم قد حفظوا حروفه وتعلموا أحكامه وقراءته وأنهم يعلمونها للناس!

.. لقد هبطت الأمة لدرجة غير مسـبوقة من الضياع والهلكة، فلم يسـبق لها أن تدنت لهذا الوضـع المزري على جميع الأصعدة، وواكب ذلك انهيار منظومة القيم والأخلاق والالتزام بتعاليم الإسلام في نفوس الناس وواقع حياتهم، وازداد البطش بالمسلمين في السنوات الأخيرة بصورة مرعبة؛ مما يدل على شدة الغضب الإلهي عليهم.

.. هذا الغضب يعكس سوء علاقة المسلمين بالقرآن بدرجة غير مسبوقة، وأن الحُجب المضروبة على القلوب قد ازداد سمكها، والمسافة التي بينها وبين القرآن قد بعُدت وبعدت..

إن التشـخيص الصحيح لما يحـدث من هزائم ونكبات وذل وضياع يشـير إلى أن الله عَزَّوَجَلَّ قد اشـتد غضبه على المسـلمين، فحرمهم تأييده، وأوكلهم إلى أنفسـهم، وجعل بأسهم بينهم شديدًا، وتركهم فريسة لأعدائهم من يهود ونصارى وهندوس وملحدين، كل ذلك سببه بالأساس:

تركهم لدينهم وإيثارهم الدنيا، وغفلتهم عن ربهم، وارتكابهم ما نهاهم عنه.. وما هذا كله إلا انعكاس لترك التمسك بالقرآن..

وتجدر الإشـارة أنه كلما اشـتدت درجة عدم تمسك المسـلمين الصحيح بالقرآن؛ زاد سُـمك الحجاب المضروب على القلـوب، وازداد البعد بينها وبينه، فتكون النتيجة أن تشتد العقوبات ويزداد وضع المسلمين سوءًا؛ لأنه كلما حُجب القلب عن مصدر النور والهداية والشفاء، وابتعد عنه؛ ازداد اندماج النفس وتوحدها معه، وازدادت سـيطرة هواها عليه، فتتمكن منه الأمراض وتنتشـر مظاهرها على أفعال صاحبـه واهتماماته، فيقع في ذنوب ومخالفات؛ مما يسـتدعي غضب الله عليه..

وليس ذلك قاصرًا على معاصي الجوارح بل ومعاصي القلوب أيضًا، بل إنك قد تجد من يحترز من معاصي الجوارح لكنه بسبب نسيان النفس، وهجر التزكية، وغُربـة معانيها يقع في مظاهر أمراض خطيرة كالكبر والإعجاب بالنفس والغرور بها، والكفران، والتعلق بالدنيا، والرياء والسمعة، والحسد والأثرة.

لقد انتشـرت -تبعًا لهجران التزكية- مظاهر الشـرك الخفي كالشرك بالنفس وبالأسباب، وبالدنيا.

.. علت قيـم المادية وحب الذات.. واختلطت المفاهيـم، وانزوت الربانية وقيمها من حياة الناس.

.. صارت معاني التزكية الحقة غريبة بين المسـلمين، ولا يكاد يُسـتثنى من ذلـك أصحاب العاطفة الدينيـة، فهجر القرآن والحرمان مـن روحه وغياب أثره الصحيح ووظيفته المتفردة وشفائه وتقويمه قد عمَّ الجميع..

لكل هذا وغيره كانت معركة العودة إلى القرآن وإلى الاستمساك الصحيح به هي المعركة الأهم والجهاد الأكبر في وقتنا الحالي.. والله أعلم.

الصعوبة البالغة لمعركة تحويل الوجهة نحو القرآن

.. نعم، هي بالفعل معركة غاية في الصعوبة.. فالمسافة بين قلوبنا وبين القرآن بعيدة بعيدة، وفي الوقت ذاته لا نشعر بهذا البعد، بل لا نرى أننا بعيدون عن القرآن ابتداءً، لذلك تجد أن الغالبية الكاسحة من المؤمنين لا تستسلم لهذا التشخيص إذا ما طُرح أمامها، ولا يجد الواحد منهم في نفسه رغبة في العودة إلى القرآن؛ لأنه لا يقتنع بأنه بعيد ابتداءً، ولا بأن قلبه محجوب عنه وعن روحه وأنواره..

.. ولئن اقتنع به البعض فستجدها غالبًا -قناعة جزئية- ترى أصحابها يجتهدون في الإمساك بالعصا من المنتصف فيقعون في كثير من الممارسات المختلطة التي تمت الإشارة إليها في غير هذه الورقات[١] .. يفعلون ذلك وهم يشعرون أنهم قد أدوا حق القرآن عليهم، وأصبحوا من أهله..

.. أما في حال تبني القلة القليلة لهذا الطرح؛ فإن هذا التبني يكون -في الغالب- بالعقل المدرك الواعي، أما العقل الباطن والمحتوى التكويني الراسخ في يقين المرء فقد تم تشكيل أغلبه قبل بلوغ سن العشرين وذلك على أسس وتصورات غير صحيحة تجاه القرآن؛ تعلي من شأن الممارسات الخاطئة السابق ذكرها في كتاب «غربة القرآن»[٢]..

---

(١) تم ذكرها في كتاب «الطريق الوحيد» وهي بإجمال: (قصر مفهوم التدبر على الفهم وإعمال العقل - البدء في حفظ القرآن بتمهل قبل الدخول عليه من بابه الصحيح - الإقبال على القرآن مع عدم التجرد له - اختلاط الأهداف في التعامل مع القرآن - طلب الهداية من القرآن باعتباره أحد مصادرها المتنوعة - الاكتفاء بتحصيل شيء يسير من هداية القرآن).

(٢) وهي بإجمال: (الجفاء عن القرآن - التوجه الدائم نحو الكتب قبل القرآن - الإسراع في حفظ حروفه مع عدم العمل به - تشغيل الآلات الحديثة التي تبث آياته دون الإنصات لها - الإسراع في قراءة آياته دون تدبر وقراءتها في أماكن الصخب واللغو - الاهتمام بإقامة حروفه وإهمال =

فإذا ما أضفت لذلك العقوبات المضروبة على القلب، والحُجب المحيطة به، والحرمان من روح القرآن وقوله الثقيل.. كل هذا وغيره يتسبب في الحيلولة دون تحويل القناعة العقلية الجديدة تجاه القرآن إلى إيمان راسخ في القلب..

وأيضًا هناك رواسب وتصورات وأفكار في اليقين والعقل الباطن قد ورثها البعض واكتسبها من شأنها أن تُخرجه من إطار «نفسية الأُمِّيِّ» في تلقي مفاهيم القرآن، وتجعل صاحبها أقرب لنفسية «أهل الكتاب» وليس المقصد من هذا التشبيه الجانب العقدي؛ بل المقصد النفسية التي تفتقد للسلاسة والاستعداد للتلقي، والاستعداد لتغيير القناعات الخاطئة، النفسية التي تجد فيها المراوغة والاستعلاء بما لديها من معارف سابقة، فتجدهم يحتكمون لتصوراتهم ومعارفهم وليس لما يلقى عليهم من حق.

وليس هذا فحسب؛ فقد ينجح البعض في تبني قضية «العودة إلى القرآن» ويُحسن التعبير عنها، ويُقنع غيره بها، إلا أنه لم ينجح مع نفسه في معركة تزكيتها لشدة اندماجها في قلبه، وما أثمر عن ذلك من نسيانه لها، أضف إلى هذا كله صعوبة قيامه بعملية التزكية في غياب روح القرآن المزلزلة التي تحيل المعاني إلى إيمان، وتهدم الباطل وتحق الحق بإذن الله..

.. معركة عاتية، ممتدة.. النجاحات فيها محدودة وجزئية سواء أكان ذلك على مستوى الفرد مع نفسه، أم مع غيره؛ لذلك كان التقدم في هذه المعركة بطيئًا بطيئًا..

وفوق هذه التحديات؛ فمن السهل على هؤلاء الانخداع ببعض الأحوال

= العمل به – قراءته بالألحان المحدثة وغير ذلك من الأخطاء).

الإيجابيــة التي تعتريهم فــي لقاءاتهم بالقــرآن وفي واقع حياتهم بســبب غياب التصــور الصحيح والصورة الذهنية عن روح القرآن المزلزلة وقوله الثقيل، وليس لديهــم كذلك المقياس الحقيقي للنجاح في عمليــة تزكية النفس وخروج القلب من ســيطرتها والانفصال عنها، وكل مــا يرددونه هو كلام نظري لا تكاد تجد أثره الصحيح الكامل على أرض الواقع..

وقــد ينخدعون كذلك ببعض العبــارات التي تلقى على مســامعهم من تأثر المدعويــن بالقرآن، وعن قناعاتهم التي تغيرت ثم ينكشــف لهــم بعد ذلك أنها كانت عبارات موهمة لا تعبر عن الحقيقة، كمن يتحدث بأن روح القرآن قد مست قلبه وزلزلته ثم لا تجد تغييرًا يذكر في ســلوكه واهتماماته وعلاقته بنفسه وبالدنيا وبالناس..

.. ومع تطاول الزمن والنجاحات المحدودة؛ قد يتسرب إلى هذه القلة القليلة الملل والإحباط بخاصة أنهم قد يتعرضون لمضايقات واتهامات متنوعة من فئات مختلفة بســبب تبنيهم «لمشروع العودة إلى القرآن كســبيل وحيد لنهضة الأمة»، وإصرارهم على ما يطرحه من معانٍ تبدو غريبة على مسامع الكثيرين..

صعوبة البدايات وفضل أهلها

.. أرأيت -أخي- صعوبة الوضع القائم ومدى شــدة وطأته على الســائرين فــي طريق إعادة القرآن مــن غربته، والعمل على رفع العقوبــات المضروبة على القلوب.. ومع هذه الصعوبات إلا أنه ينبغي علينا أن نستبشر، وكيف لا؟ فمعنى أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أرى نفرًا قليلًا شيئًا من حقيقة القرآن، وأعلمهم بالتشخيص الصحيح لحال الأمة وما حاق بها من صور متنوعة لغضبه ســبحانه، وأرشدهم أن رفع هذا

العقاب مرتبط بالعودة الصحيحة للاستمساك بالقرآن، وأعانهم على جهاد أنفسهم والبدء في سلوك طريق تلك العودة.

ألا يعني هذا -والله أعلم- أنه سبحانه قد أذن بعودة القرآن من غربته ورفع عقوبة تخفيفه؟!

ألا يعني أن جيل القرآن الممهد لعودة الإسلام من غربته قد أذن له الله بالظهور، وأن قيام هذا النفر القليل بحمل راية القرآن هو ممهد ومبشر لظهور هذا الجيل؟

ولنتذكر قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ﴾ [الحديد: ١٠].

إن البدايات دومًا تتسم بالصعوبة؛ بخاصة حين تكون ضد التيار الغالب، لكن استحضار هذه البشارة من شأنه -بإذن الله- أن يرفع الروح المعنوية ويحفز للمضي قدمًا في هذا الطريق.. وأضف إلى هذا المعنى تلك النجاحات الجزئية التي يكرم الله بها الفرد من حين لآخر، والتي تعد بمثابة سلوى ووقود -بإذن الله- للتصبر والاستبشار لمواصلة السير بهمة ونشاط.

فمن صور تلك النجاحات

النسمات القرآنية التي تُشعر صاحبها بأنه في جنة معجَّلة، وكذلك العلاقة التي تتحسن شيئًا فشيئًا بالله عَزَّوَجَلَّ، والحضور القلبي المتصاعد معه سبحانه.. .. وكذلك التعرف على مظاهر الاندماج النفسي والمجاهدة في التخلص منها.. .. ومنها: إقبال البعض على هذه الدعوة وإن كان محدودًا ..

.. وأيضًا وضوح الرؤية لطبيعة المعركة، ومكاننا فيها..

.. وتخلصنا -بفضل الله- من كثير من صور الخداع التي كنا مستغرقين معها حول نجاحنا الشخصي المتوهم في علاقتنا بالقرآن وأننا قد صرنا من أهله.. .. وكذلك تعرفنا على حقيقة معركة التزكية وموقع أنفسنا منها.. ولئن كنا لم ننجح في تزكية أنفسنا وفصلها عن قلوبنا؛ لكننا في الوقت ذاته نعلم أننا لم ننجح؛ ومن ثم سنعاود المحاولات الواحدة تلو الأخرى.. ولأن نُقبل على الله مقرين بتقصيرنا مع القرآن ومع أنفسنا ومع الناس خير من الإقبال عليه بنفسية المخدوع بنجاحات متوهمة غير حقيقية..

وصايا على الطريق

إن العبء الضخم لإعادة القرآن من غربته، ورفع العقوبات المضروبة على القلوب ليقع بالأساس على عاتق أبناء هذه الفئة القليلة -إن وُجدت- أولئك الذين أكرمهم الله وتفضل عليهم بمعرفة التشخيص الصحيح لحال الأمة، والطريق الوحيد للخروج من المأزق الراهن..

من هنا ينبغي أن تكون هذه الفئة القليلة على قدر هذا التشريف وهذا التكريم الإلهي: ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وليتذكروا حالهم قبل ورود فضل الله عليهم بدلالتهم على حقيقة القرآن وغربته: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

فدوام تذكُّر هذه النعمة ومقارنة حال القلب بما كان قبلها لمن الأهمية بمكان في استشعار فضل الله علينا، وينـدرج تحت هذه النعمة المفاهيم التي تغيرت والتصورات التي انصلحت:

﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[البقرة: ١٨٥].

﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولنخوف أنفسنا من الغرور والنكوص والتراخي وعدم أخذ أمر إعادة القرآن من غربته بقوة:

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

فما أهون العباد على الله إن هم عصوه وخالفوا أمره وتقاعسوا عن القيام بما كلفهم به.. ولنتأمل هذا الجزء من الحديث ليزداد تأكدنا من هذا المعنى:

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ أوحَى إلى يحيَى بنِ زكريَّا بخمسِ كلماتٍ أن يعملَ بهنَّ ويأمرَ بني إسرائيلَ أن يعملوا بهنَّ، فكأنَّه أبطأ بهنَّ، فأتاه عيسَى فقال: إنَّ اللهَ أمرك بخمسِ كلماتٍ أن تعملَ بهنَّ وتأمرَ بني إسرائيلَ أن يعملوا بهنَّ، فإمَّا أن تُخبرَهم وإمَّا أَنْ أُخْبِرَهُمْ، فَقَالَ: يَا أَخِي لَا تَفْعَلْ فَإِنِّي أَخَافُ إِنْ سَبَقْتَنِي بِهِنَّ أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ قَالَ: فَجَمَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ**... الحديث»[1].

.. ولنخوف أنفسنا بأنه لا كبير على الاستبدال والعقاب:

﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٩].

(١) رواه أحمد في المسند (٢٨/ ٤٠٤ برقم: ١٧١٧٠)، والترمذي (٥/ ١٤٨ برقم: ٢٨٦٣)، وصحيح ابن خزيمة (٣/ ١٩٥ برقم: ١٨٩٥) واللفظ له.

ولنتأمل خطاب الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه المصطفى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴾ [الرعد: ٣٧].

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الشورى: ٢٤].

.. علينا إذن أن نستحضر دومًا حقيقة أنه لا كبير على الاستبدال حين تنعقد أسبابه وذلك حين يضعف العزم ويقل الجهد، وتختلط النية، وتَستحكِم الغفلة، ويُتكاسل عن التبليغ، ويُتبرم من الصدود والإعراض..

فقد يستيقظ أحدنا يومًا فلا يجد قلبه، ولا يشعر بأي تجاوب مع القرآن، وقد يصرفه الله عنه بمشاغل يُسلِّم بعضها بعضًا، أو يزيغ فكره نحو شبهة من الشبهات المطروحة ويستسلم لها ويمرض قلبه بها: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ﴾ [المدثر: ١٨، ١٩]. فيكون ذلك سببًا في زيغ قلبه، فيستدعي بذلك عقوبة من الله بمزيد من الزيغ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ [الصف: ٥].

وهذا ما حدث مع بني إسرائيل حين لم يستسلموا ولم يُصْدقُوا نبيهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

لذلك كان من دعاء المؤمنين:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾

[آل عمران: ٨].

وكان من عامة دعاء رسول الله ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(١).

ومما جاء في القرآن حول معنى: ضرورة عدم الأمن، مع الخوف الدائم من الزيغ والاستبدال قوله تعالى: ﴿ رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٩٣، ٩٤].

.. لذلك علينا أن نسير في طريق العمل على إعادة القرآن من غربته بجناحين:

جناح الرجاء والاستبشار والتحفيز للاستمرار في السير بعزم أكيد دون كلل أو ملل.

وجناح الخوف والترهيب من الاستبدال بسبب التراخي أو عدم أخذ أمره بقوة، أو الغرور بالفتوحات، أو اختلاط النية..

ولنتذكر قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ للهِ - تَعَالَى - قَوْمًا يَخْتَصُّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَيُقِرُّهَا فِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ**»(٢).

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب حدثنا أبو موسى الأنصاري، (برقم: ٣٥٢٢)، وأحمد (١٨/ ١٠٠ برقم: ١٢١٠٧)، والحاكم (١/ ٥٢٥ - ٥٢٨).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في اصطناع المعروف وفي قضاء الحوائج (برقم: ٥)، والطبراني في الكبير (١٣/ ٢٠٧) والأوسط (٥/ ٢٢٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ١١٥ ١٠/ ٢١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ١١٧ برقم: ٧٢٥٦)، وذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ١٨١) عن أحمد بن حنبل.

ومما يقوي جناح الرجاء والتحفيز

استحضار أمنية أن تشملنا البشارات النبوية بعودة الإسلام الصحيح الكامل، وأن نكون ممن ساهم في تحقيقها ولو بأدنى درجة، ولا يضيرنا ألا يتذكرنا حينها أحد من البشر فيكفينا علم الله واطلاعه علينا.

ومن تلك البشارات التي نطمع أن تشملنا -ولو كنا في آخر صفوف أهلها- قول رسول ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي**»(١).

وقال: «**طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، الَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِكِتَابِ اللهِ حِينَ يُتْرَكُ، وَيَعمَلُونَ بِالسُّنَّةِ حِينَ تُطْفَأُ**» (٢).

وفي حديث عودة الخلافة على منهاج النبوة بشرى عظيمة كذلك؛ فبعد أن ذكر الرسول ﷺ ما ستمر به الأمة من مراحل بعد وفاته من خلافة راشدة على منهاج النبوة، ثم ملك عضوض، ثم ملك جبري؛ كانت بشراه بعودة الخلافة على منهاج النبوة:

فعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ**

(١) الترمذي (٤/ ٣١٤ برقم: ٢٦٣٠) ط: دار الغرب الإسلامي، ولفظ الترمذي: «**إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل، إن الدين بدأ غريبًا ويرجع غريبًا فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي**». والمعجم الكبير للطبراني(١٧/ ١٦برقم: ١١) (بنفس اللفظ السابق)، وشرح السنة للبغوي (١/ ١٢١ رقم:٦٥).

(٢) البدع لابن وضاح (٢/ ١٢٤ برقم: ١٦٩).

مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا اللهُ إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ»(١).

فالحديث يحمل بشرى عظيمة بعودة الخلافة بعد أن تصطلي الأمة بنار الملك الجبري القهري المستبد.. ولقد ذكر رسول الله ﷺ أنها خلافة على منهاج النبوة.. وما منهاج النبوة؟! أليس هو القرآن والاستمساك الصحيح به؟!

معنى ذلك أن ما كان من الجيل الأول من التجرد للقرآن وحُسن الاستمساك به؛ سيتكرر بإذن الله مع جيل جديد، وسيعود القرآن قولًا ثقيلًا، وتحلُّ روحه في ألفاظه عند هذا الجيل.. جيل الخلافة على منهاج النبوة.

.. نعم، أخي.. علينا أن نُمنِّي أنفسنا بأن تشملنا هذه البشرى، وأن نكون قد ساهمنا في هذه العودة بأي قدر، دون أن يدفعنا ذلك للغرور والركون إليها، أو الشعور بالتميز على الآخرين، ولنتذكر دومًا هذه القصة:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾

(١) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده (١/ ٣٤٩ برقم: ٤٣٩)، والإمام أحمد في المسند (٣٠/ ٣٥٥ برقم: ١٨٤٠٦)، واللفظ له، والبزار (٧/ ٢٢٣)، والعراقي في محجة القرب (ص: ١٧٦)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٨٩)، وابن حجر الهيتمي في مبلغ الأرب (ص: ٣).

﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ، ١٧٦].

لا تستهلك جهدك إلا في مكانه الصحيح

على كل منا أن يبذل غاية جهده في العمل مع نفسه للاقتراب أكثر من القرآن، والنجاح في معركة التزكية، وكذلك حُسن تبليغ الدعوة لمن يصغي لها سمعه، وكلما كان هذا البلاغ لأصحاب النفسية القريبة من نفسية الأمي الشغوف للمعرفة كان أولى وأفضل.. والمقصد من نفسية الأمي ذلك الشخص الذي لا توجد لديه أفكار وتصورات مسبقة يتخذها معيارًا ومقياسًا لكلام الآخرين فلا يقبل إلا ما وافق هذا المقياس..

.. إن صاحب نفسية الأمي الشغوف تجده شخصًا سلسًا يُحسن الاستماع والتلقي والتفاعل كحال أولئك النفر من نصارى نجران حين استمعوا لبعض آياته:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

[المائدة: ٨٣ ، ٨٤].

أما الآخر صاحب المفاهيم والتصورات المسبقة التي يحاكم عليها ما يتلقاه دون تفكير أو تروٍّ فما أقربه من صفات أهل الكتاب المذمومة التي أفاض القرآن في ذكرها، كمثل قوله تعالى على لسانهم:

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٧٣]. أي لا تصدقوا ولا تثقوا إلا فيمن يتبعكم ويتبنى تصوراتكم وأفكاركم وطرائقكم..

وكقولــه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ [البقــرة: ٨٨] أي قلوبنا ممتلئة بالعلم ولا تحتاج إلى جديد من أحد.

وقوله سبحانه:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [البقرة: ١١٣].

فتجد الواحد منهم قد ينتقص من علم الآخرين وجهدهم لأنهم ليســوا على طريقته ومنهجه... والمعنى هو المقصود من هذه الأمثلة..

ولعل النشء والفتيان هم الأقرب لنفســية الأمي لأنهم يعيشونها بالفعل، وإن كان هذا لا ينفي وجود من يحمل هذه النفسية ممن تجاوزوا سن المراهقة، ولكن نسبتهم قليلة.. والله أعلم.

.. ومما يلحق بهــذه الوصية: ألا نقــف طويلًا مع أصحاب تلك النفســية، ولا نطيــل الجــدال معهــم: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ ماذا نفعل معهم؟

لا تجادلوهم..

ونتمثل بما جاء في قوله تعالى:

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٢٥].

﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٢].

وَلَكَم ضاعت أوقات، وأُوغرت صدور، واستُهلكت جهود وطاقات بسبب عدم استحضار هذا المعنى والعمل بمقتضاه..

تحويل الصورة الذهنية

حين كان رسول الله ﷺ في مكة يواجه التكذيب والسخرية، وتكال له الاتهامات، ويُضيّق عليه وعلى أصحابه؛ كانت الآيات القرآنية تتنزل لتسري عنه، وتُحوِّل فكره تجاه معانٍ إيمانية يستشعر من خلالها مدى الإنعام الذي أكرمه الله به، وتنطلق به نحو الأفق الرحيب لهذا الكون وما فيه من عوالم تعيش في حالة دائمة من التسبيح الدائم لله عَزَّوَجَلَّ، وكانت الآيات كذلك تواسيه وتذكره بأنه ليس وحده الذي ابتُلي بمثل ما ابتُلي به؛ بل سبقه بذلك إخوانه من الرسل السابقين.. ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠].

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ

فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ

وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ

وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ [غافر: ٥٥].

﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ
إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [ص: ١٧، ١٨].

فلنستفد من هذه الوسيلة التربوية القرآنية بالعمل على تحويل وجهة الفكر نحو مزيد من الانشغال بالله، وزيادة التعلق به، والاجتهاد في اللحاق بصفوف المسبحين.. كل هذا وغيره سيكون له أثر إيجابي -بإذن الله- في التقليل من شأن ما نلاقيه من صعوبات..

ولئن كان الكلام في هذه الورقات قد يتسبب في شعور البعض بالثقل الشديد للمهمة الملقاة على عاتقه، مع طول الطريق؛ إلا أنه من الضروري ألا يؤدي هذا الشعور إلى القعود والإحباط، بل علينا أن نقاومه ونجعله مادة لشحذ الهمم، ومما ييسر هذا الأمر: دوام طلب العون من الله عَزَّوَجَلَّ، والعمل على توجيه تفكيرنا نحو تذكر قدر نعم الله علينا أن أكرمنا بهذه المعاني، وهذا الطريق، والسير تحت هذه الراية.

وعلينا كذلك دوام التواصي على مواصلة السير فيه، وعدم الالتفات لما يُلقى علينا من سخرية واتهام..

لو فعلنا ذلك لتحول التكذيب والسخرية إلى وقود يدفعنا -بإذن الله- لبذل غاية الجهد في الاستعانة الصادقة بالله عَزَّوَجَلَّ، والعمل مع أنفسنا، وتبليغ الدعوة لمن يُصغي لها سمعه ويُحسن استقبالها..

زيادة الإيمان بالقرآن

ومن الوصايا

أن نجتهد في تنمية قدر القرآن في عقولنا، وزيادة الإيمان به في قلوبنا، وذلك من خلال إطالة المكث معه بصورة يومية دائمة..

ولئن كان إيماننا بقدر القرآن في قلوبنا لم يزل محدودًا ولم يصل إلى درجة قناعتنا العقلية الواسعة، إلا أنه بالدعاء، والمجاهدة، والمثابرة، ودوام التذلل لله، وطول المكث مع القرآن والإنصات لآياته؛ سيزداد الإيمان القلبي بالقرآن -تدريجيًّا- بخاصة حين نلتزم بتطبيق وسيلة التفاعل مع الآيات بصورة تفصيلية، فلا نترك آية تمر إلا ونتفاعل مع ما تتضمنه من خطاب: إما إشهاد أو تسبيح الله، أو دعائه؛ أو مناجاته، أو... إلخ.

التذكير الدائم بضخامة التحديات

فالانحراف عن القرآن قد بدأ بعد جيل الصحابة..، نعم، بدأ يسيرًا بترك التمسك الصحيح الكامل به، وعدم التجرد التام له، لكن هذا الانحراف ازداد تدريجيًّا بمرور الأجيال حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

من هنا كان من الضروري دوام تذكر حجم التحديات التي نواجهها، ويواجهها العاملون على إعادة القرآن من غربته.

فالتحديات متنوعة: منها ما هو في ذواتنا من استمرار سريان عقوبة الحرمان من القرآن علينا، وحجب قلوبنا عن روحه، مع صعوبة نجاحنا في معركة التزكية بدون روح القرآن وأثره المزلزل.. وكذلك وجود نسبة (ما) من عدم الأمية لدينا، والتي تنكشف حين نتلقى مفاهيم ومعاني القرآن والتزكية، وهل نتلقاها بنفسية

سلسة منبهرة عازمة على العمل بها، أم بنفسية فاترة لا تنقاد لها كما ينبغي الانقياد؟!

.. **ومن التحديات**: ما نواجهه من إعراض الناس، وتصاعد درجة ابتعادهم عن جوهر القرآن، وتنامي الاهتمام بحفظ حروفه وإتقان قراءاته المتنوعة والتنافس في ذلك، والدعوة إليه.

وغير ذلك من التحديات..

الاجتهاد في إزالة العقوبات

.. علينا أن نبذل غاية جهدنا في العمل على استمطار رحمة الله عَزَّوَجَلَّ ليرفع سبحانه عقوبته عنا وعن كل من يعمل على إعادة القرآن من غربته..

.. نجتهد في ذلك حتى تتحول -بعون الله- قناعتنا العقلية عن القرآن ومعانيه إلى إيمان راسخ في القلب..

نجتهد في اتخاذ الوسائل المعينة -بإذن الله- على رفع العقوبات عن قلوبنا حتى تمسها روح القرآن.. وحتى يصير القرآن لدينا قولًا ثقيلًا كما أنزله الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن تأخر رفع تلك العقوبات فلا نبتئس ولا نسمح بتسرب الإحباط إلى نفوسنا، بل نستمر في طرق الباب، والتضرع إلى الله والتذلل إليه، مع طول المكث مع القرآن، والتجاوب معه، ودلالة الناس عليه.

ونجتهد كذلك في التخلص من صور الوهم والغرور التي نتلبس بها حين نتصور أننا من أهل القرآن والتزكية، وعلينا الطرق دومًا على عقولنا أننا لا زلنا نحبو بصعوبة بالغة في السير نحو القرآن، وما الفتوحات التي قد ترد على بعضنا إلا نسمات يؤيدنا الله بها ليثبت قلوبنا ويدفعنا نحو دوام السير في هذا الطريق، فإن

لم نتعامل معها على هذا الأســاس؛ بل وقفنا عندها، وشــعرنا بالتميز بها؛ صارت حجابًا إضافيًّا يبعدنا أكثر وأكثر عن الله عَزَّوَجَلَّ، وعن كتابه.

ألا يكفيك

قــد يرفع الله عَزَّوَجَلَّ عنا عقوبة الحرمان والتخفيف في القريب، وقد لا يحدث لنــا ذلك طيلة حياتنا، فقد نُتوفَّى -بعضنا أو كلنا- دون رفعها.. ومع ذلك ألا ترى فيما أكرمك الله به وعلمك من معانٍ قرآنية غيَّرت وحسَّنت -بالفعل- من علاقتك بربك، وبنفسك، وبالناس، وبالدنيا، وبالآخرة؟!

ألا يرى السائرون في طريق العودة إلى القرآن عظيم فضل ربهم عليهم؟!

.. يكفي أنهم قد أدركوا خطورة الوضع القائم مع القرآن والتعاملات الخاطئة والمختلطة معه..

.. يكفــي أنهــم قــد بــدؤوا رحلــة العــودة إلــى القــرآن واستمســكوا به بدرجــة (مــا) ولا يزالــون يجتهــدون في العمــل على الاستمســاك التــام به..

.. يكفي أنهم يشعرون بالتقصير تجاه القرآن، وأن قلوبهم تُنادَى به من مكان بعيد..

.. نعــم، لئن كانوا بالفعل يُنادَون بالقرآن من مــكان بعيد إلا أن درجة بُعد قلوبهم ليســت كحالهم قبل ذلك، وليســت كحال من يســير عكس الاتجــاه المطلوب مع القرآن ويعتقد أنه يُحســن صنعًــا: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤].

.. يكفي أن شعورهم بالتقصير نحو القرآن والتزكية والبلاغ يدفعهم إلى بذل المزيد من الجهد والإلحاح على الله، والتجرد للقرآن، والدعوة إليه، والصبر على ذلك.. مع السير بقوة في طريق التزكية التي بيَّنها القرآن..

.. ومع تلبسهم بالشعور بالتقصير؛ فإن الأمل يحدوهم أن تصيبهم رحمة من الله فيكرمهم بنفحة من نفحات جوده، ويرفع عن قلوبهم الحُجب والعقوبات، ويؤيدهم بروح القرآن.

ولا يعلم الغيب إلا الله؛ فلعل قلوبًا كثيرة تكون قد اقتربت واقتربت من سقوط تلك الحُجب عنها؛ ومن ثم ينفتح أمامها الطريق -بإذن الفتاح العليم- لنور القرآن يغزوها، ولروحه تؤيدها..

فإن لم يحدث ذلك؛ فحسبهم أنهم قد ساروا في طريق العودة إلى القرآن، وأدركوا تقصيرهم معه، واجتهدوا في رفع العقوبات عن قلوبهم، وتطهيرها من أمراضها.

.. نعم، قد لا نحقق الهدف الذي نسعى إليه برفع العقوبات عنا وعن الأمة، وعودة القرآن قولًا ثقيلًا، وتأييد القلوب بروحه، وهيمنة نوره عليها.. وقد يطول هذا الحرمان.. وقد يموت بعضنا دون رؤية عودة الأمة إلى القرآن، ولكن ألا يكفي أن نكون قد ساهمنا في ذلك حتى لو كان موقعنا في البدايات والتمهيدات وتهيئة الأرض لوضع الأساس الذي لا يراه أحد!! .. ألا يكفي أن الله يرانا والملائكة تشهد والصحف تُسجل؟!

.. ألا يكفي أن نكون ممن استخدمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الدلالة على هذا الكنز المهجور والمعجزة الكبرى.. ألا يرضيك أن تكون ممن يعمل على

إزالة شكوى الرسول ﷺ:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

وأخيرًا: لنعلم أن العقوبة التي أصابتنا شـــديدة، والحجاب ســـميك، وأغلب الناس لا يدرك ذلك، بل يرى خلافه، فلنستعن بالله ولنتضرع إليه تضرُّع من يصارع الغـــرق في تيار الماء الجارف.. ولندعوه بأن يجعل آذاننا ســـميعة وأعيننا بصيرة، ويفتح أقفال قلوبنا، ويجعلنا مهيئين لتلقي نور القرآن وروحه ودوائه..

• • •

وفي النهاية

أخي: إن كان القرآن هو سر نهضتنا -وهو كذلك- فهو يحتاج بالضرورة إلى من يحمله ويبلغه للناس.

لذلك فإن كل ما قيل في الصفحات السابقة متوقف على من يتبناه، ولكن لا يمكننا أن نحمله ونتبناه إلا إذا بدأنا بأنفسنا، وذقنا حلاوة التغيير من خلال القرآن، وشعرنا بالقوة الروحية والدافع الذاتي الدائم المتولد من لقائنا معه.

فلا تتعجل -أخي- دعوة غيرك إلى ذلك إلا بعد أن يتمثل فيك أولًا وترى بنفسك أثر المعجزة القرآنية، وهذا لا يحتاج إلى وقت طويل، شريطة أن تشتد رغبتك، وتواظب على الوسائل المذكورة آنفًا وغيرها مما يفتح الله به عليك للوصول إلى مرحلة التأثر المستمر، وأن تتواصى بذلك مع من معك، وأن تلح دومًا على ربك بأن يكرمك ويكرمني ويكرم جميع المسلمين بالدخول إلى عالم القرآن، والانتفاع الحقيقي بمعجزته.

• • •

مناشدة

أخي الحبيب

ناشدتُك الله بأن تأخذ موضوع القرآن مأخذ الجد.

ناشدتُك الله أن تخصص له على الأقل ساعة يوميًّا تقرؤه بتفهم وترتيل وتباكٍ.

ناشـــدتُك الله أن تفعل ذلك وتصبر عليه؛ فالأمـــة في انتظارك، والقرآن جاهز لتغييري وتغييرك.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)

• • •

أهم المراجع

- القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن – دار الندوة الجديدة – بيروت.
- إحيـاء علوم الديـن – أبو حامد الغزالي – دار الحديـث القاهرة – ط١ – ١٤١٢هـ.
- أخلاق حملة القرآن – أبو بكر الآجري – دار الكتاب العربي – لبنان.
- آداب الشيخ الحسن بن أبي الحسن البصري – ابن الجوزي – دار المعراج – الرياض – ط١ – ١٤١٤هـ.
- استنشـاق نسيم الأنس – ابن رجب – المكتب الإسلامي – دار الخاني – ط١ – ١٤١١ هـ.
- البداية والنهاية –الحافظ ابن كثير– مكتبة العبيكان – السـعودية – ط٢ – ١٤١٧ هـ.
- تدبر القرآن – سـلمان بن عمر السـنيدي – المنتدى الإسلامي – ط١ – ١٤٢٢هـ.
- تفسـير القـرآن العظيم –الحافظ ابـن كثير – مكتبة العبيـكان – المكتبة العصرية – بيروت – ط٢ – ١٤١٧هـ.

- التوحيد والوساطة في التربية الدعوية - د.فريد الأنصاري - دار الكلمة - المنصورة - مصر.
- الجهاد في الإسلام - د.محمد سعيد رمضان البوطي - دار الفكر - دمشق.
- حديث القرآن عن القرآن - محمد الراوي - مكتبة العبيكان - الرياض - ط١ - ١٤١٥ هـ.
- حياة الصحابة - محمد يوسف الكاندهلوي - شركة الرياض - السعودية - ط١ - ١٩٩٨ هـ.
- الدر المنثور في التفسير المأثور - جلال الدين السيوطي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ٢٠٠٠ م.
- دموع القراء - محمد شومان الرملي - دار النفائس - الأردن - ط١ - ٢٠٠٣م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد - ابن القيم - مؤسسة الرسالة - بيروت.
- شعب الإيمان - البيهقي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١٠هـ.
- الطبقات الكبرى - ابن سعد - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١٠هـ.
- العقوبات - ابن أبي الدنيا- دار ابن حزم - بيروت.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري - الحافظ ابن حجر العسقلاني - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١٠هـ.
- فتح الرحمن في بيان هجر القرآن - محمد فتحي، محمود الملاح - دار طيبة الخضراء - مكة.

- فضائل القرآن - أبو عبيد بن سـلام الهروي - تحقيق مروان العطية - دار ابن كثير - دمشق - ط٢ - ١٤٢٠هـ.
- فضائـل القرآن - أبو بكـر الفريابي - تحقيق د.يوسـف عثمان - مكتبة الرشد - الرياض - ط٢ - ١٤٢١هـ.
- كيف نتعامل مع السـنة النبوية - د.يوسـف القرضاوي - دار الشروق - القاهرة - ط١ - ٢٠٠٠م.
- كيـف نتعامل مع القرآن؟ - محمد الغزالـي - دار الوفاء - المنصورة - مصر - ط٢ - ١٤١٢هـ.
- كيف ننتفع بالقرآن الكريم - أحمد البراء الأميري - مؤسسة الريان بيروت.
- لمحـات الأنوار ونفحات الأزهار وري الظمآن - الغافقي - دار البشـائر الإسلامية - بيروت - ط١ - ١٩٩٧ م.
- مختصر قيام الليل - محمد بن نصر المروزي - مؤسسـة الرسالة - ط٢ - ١٤١٤هـ.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم - محمد أبو شهبة - طبعة خاصة بالمؤلف.
- مفتاح دار السعادة - ابن القيم - دار ابن عفان - الخُبر - السعودية - ط١ - ١٤١٦هـ.
- النبـأ العظيـم - د.محمد عبـد الله دراز - دار طيبـة - الرياض - ط٢ - ١٤٢١هـ.

• • •

الفهرس

الموضوع رقم الصفحة

مقدمة الطبعة الثانية ٥
مقدمة الطبعة الأولى ٧

الفصل الأول

الأسباب والنتائج

الأسباب المادية والمعنوية ١٣
النتائج من الله لا من الأسباب ١٦
خطورة التعلق بالأسباب ١٧
سِتار الأسباب ١٧
هل الأسباب متاحة للجميع؟ ١٩

الفصل الثاني

لسنا كبقية الأمم

لسنا كبقية الأمم ٢٥
الوضع الخاص بأمة الإسلام ٢٥
هل نترك الأسباب المادية؟ ٣١
العودة إلى الله هي البداية ٣٢

المسلم الصحيح أولًا ٣٣
المقصود بصلاح الفرد ٣٣
هل هي دعوة للتخلف؟! ٣٤
من فوائد البدء بصلاح الفرد وإيجاد المسلم الصحيح أولًا..... ٣٦

الفصل الثالث

المعجزة التي نحتاجها

المعجزة التي نحتاجها ٤١
الحلقة المفقودة..... ٤١
الدافع الذاتي..... ٤٤
فما هو هذا المصدر؟ وأين نجده؟! ٤٥
ما المقصود بالقوة الروحية؟ ٤٥
المواصفات المطلوبة ٤٦
إنه القرآن العظيم..... ٤٨
مظاهر قوة تأثير القرآن ٤٩

الفصل الرابع

لماذا القرآن هو سر نهضتنا؟

لماذا القرآن هو سر نهضتنا؟ ٥٥
أولًا: القرآن هو اختيار رب العالمين لعباده أجمعين ٥٦
ثانيًا: القرآن يجمع بين الرسالة والمعجزة..... ٥٨

ثالثًا: القرآن يخاطب الفكر والعاطفة في آن واحد..... ٦٠
رابعًا: القرآن لديه القدرة -بإذن الله- على الاستثارة الدائمة للمشاعر
والضرب على أوتار القلوب وتوليد الطاقة والقوة الروحية ٦٣
بحر لا ساحل له ٦٥
خامسًا: القرآن ميسر للذكر والفهم ٦٧
سادسًا: القرآن هو الكلمة السواء التي لا يختلف عليها اثنان من الأمة ...٧٠
سابعًا: القرآن نبع متجدد لا تمله ٧٣
ثامنًا: القرآن وسيلة ودواء مُجرب ٧٦
الجيل الفريد..... ٧٩
من ثمارهم تعرفونهم ٨٠
تاسعًا: القرآن هو المنقذ -بإذن الله- والمُخرج من الفتن الذي دلنا عليه
رسول الله ﷺ..... ٨٣

الفصل الخامس

كيف يُمكن للقرآن أن ينهض بالأمة؟

كيف يمكن للقرآن أن ينهض بالأمة؟..... ٨٩
هجر القرآن ٨٩
الصورة الموروثة عن القرآن..... ٩٠
الكتاب الوحيد..... ٩١
أين شرفنا؟ ٩٣
فهل المشكلة في القرآن؟ ٩٤

الحاضر الغائب ٩٥
إعادة الثقة في القرآن ٩٦
من أخطر العقبات ٩٩
معنى التدبر ١٠٠
بناء الإيمان من خلال القرآن ١٠٢
خصوصية الترتيل ١٠٣
التأثر بالمعنى هو بداية التمهيد لطريق التدبر ١٠٤
الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح ١٠٤
الإنصات التام أثناء التلاوة ١٠٦

الفصل السادس
فلنأخذ أمر القرآن بقوة

فلنأخذ أمر القرآن بقوة ١١٣
الصراط المستقيم ١١٦
هذا القرآن ١١٧
القرآن أعظم مؤدب ١١٩
كتاب عزيز ١٢٠
الدفعة الأولى ١٢٤
ويضع به آخرين ١٢٥
الجهاد بالقرآن ١٢٨
ليسوا سواء ١٢٨

العقوبة عامة ١٣١
بل نحن جميعًا محرومون..... ١٣٣
المعركة الكبرى..... ١٣٥
الصعوبة البالغة لمعركة تحويل الوجهة نحو القرآن..... ١٣٨
صعوبة البدايات وفضل أهلها ١٤٠
وصايا على الطريق..... ١٤٢
وفي النهاية..... ١٥٧
مناشدة..... ١٥٨
أهم المراجع..... ١٥٩
الفهرس ١٦٣

• • •